عبد الكريم القنبعي الإدريسي

بعض المراجع بالعربية

- **محمد صفوح الأخرس**، علم السكان وقضايا التنمية والتخطيط لها، دار النشر بدون، دمشق 1979.
- معجم العلوم الاجتماعية، إعداد لجنة من الأساتذة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1975.
- **زيدان عبد الباقي**، أسس علم السكان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1976.
- **زيدان عبد الياقي**، في علم السكان، مطبعة جامعة دمشق، 1959.
- **زيدان عبد الباقي**، التفكير الاجتماعي، نشأته وتطوره، دار المعارف، القاهرة، 1975.
- **صلاح الدين نامق**، دراسات في علم السكان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 1، السنة بدون.
- **صلاح الدين نامق**، الانفجارات السكانية في العالم، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، 1964.
- **إسماعيل حسن عبد الباري**، الديموغرافيا الاجتماعية، دار المعارف القاهرة، 1983.
- **زهرة صالح عبد المهدية**، النظريات السكانية الاجتماعية، بحث لنيل شهادة البكالوريوس، جامعة القادسية، 2017.
- **عبد العالي الخفاف**، جغرافية السكان (أسس عامة)، ط 2، 2007،.
- **فتحي محمد أبو عيانة**، دراسات في علم السكان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1985.
- **محمد عوض محمد**، سكان هذا الكوكب، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ط 3، 1955.

- **روى فرانسيس**، ترجمة محمد محمود الصياد "السكان في عالم الغد" مكتبة مصر، القاهرة 1958.
- **فالنتي**، ترجمة مقدام بسام، "أسس نظرية السكان"، دار التقدم موسكو، 1980.
- **ليليان غرانكل**، ترجمة أحمد فؤاد نجيب، هذا العالم المزدحم. مقدمة لدراسة علم السكان، دار نهضة للطبع والنشر، القاهرة، 1972.

Bibliographie étrangère

- Eléments de statistique et de démographie comparée.
- Dawson. M.n. Ethic of confucius comments 1931.
- K.C. Kammeyer et Ginn. An introduction to population,The Dorsey Press, Chicago,

مادة

الديموغرافيا

مسلك علم الاجتماع

الفصل الثاني

د عبد الكريم القنبعي الإدريسي

المحاضرة الأولى:

مدخل عام:

نتناول فيه:

**** المحطة الأولى: الثورة الصناعية في انجلترا سنة 1750م والتي قلبت موازين نمط العيش في انجلترا، ثم انتقل هذا التغيير في نمط العيش الى باقي أوروبا وكان من تداعياته أن:**

- تقليص مكانة الحرفي (وما ترتب عنه)

- تحول المزارعون الى عمال مزارعين (وما ترتب عنه)

- تحول الأراضي الزراعية الى ضيعات رأسمالية (وما ترتب عنه)

- تدخل التيكنولوجيا في الزراعة والصناعة (وما ترتب عنه)

- تكدس المدن بالعمال خاصة في الأزفة الضيقة

-ظهور طبقة العمال (عمالة النساء والأطفال)

- الزيادة في طلب اليد العاملة (سواء المؤهلة أوغير المؤهلة)

- تنقل الناس من البوادي الى المدن الصناعية (ظاهرة الهجرة)

المحاضرة الثانية:

**المحطة الثانية: الثورة الفرنسية في فرنسا سنة 1789م والتي أفرزت واقعا جديدا في فرنسا ثم ما لبث أن انتقل الى أوروبا، وكان من تداعياته أن مس الجوانب الأساسية في فرنسا:

- الجانب السياسي (وما ترتب عنه)
- الجانب القانوني (وما ترتب عنه)
- الجانب الاقتصادي (وما ترتب عنه)
- الجانب الديني (وما ترتب عنه)

المحاضرة الثالثة والرابعة:

تمهيد

يحيل مفهوم "السكان" على "الديموغرافيا" باعتبارها تسمية لدراسة السكان كمجموعة أفراد يقطنون معا في رقعة جغرافية معروفة ومحددة في زمن معين، وتجمع بينهم ثقافة وخصائص بعينها تميزهم عن باقي أفراد المناطق الجغرافية الأخرى القريبة أو البعيدة.

في إطار تصنيف العلوم كمجالات معرفية، يجب الاعتماد على مفاهيم تحدد اشتغال كل علم على حدة، بمعنى أن لكل علم مفاهيمه الخاصة، أي لكل علم مادته المفاهيمية التي تمكن القارئ من وضع ما يقرؤه في إطاره المعرفي الخاص به، وعلى هذا الأساس يمكن أن نخوض بشكل علمي في البحث عن مفاهيم تؤكد صحة ومشروعية المصداقية العلمية في دراسة السكان كظاهرة ديموغرافية (لأن الذين يقومون بمثل هذه الدراسات يدعون ب"الديموغرافيين" لأن دراستهم تقوم أو تعتمد على بعض المفاهيم التي لها علاقة بالسكان)، والتي من خلالها يمكن أن تجعل من السكان/من الظاهرة السكانية مختبرا لتحليل هذه المفاهيم في علاقتها بحالة وحركة الأفراد في اليومي الخاص بهم طبقا لقوانين رياضية ومعادلات إحصائية، تجتمع في قالب قانوني تسنه الدول كاستراتيجيات لضبط المجالات الحياتية لطبيعة اشتغال النظم الاجتماعية، التي تنظم الحياة السكانية في البلاد على امتداد حيز زمني يختلف من دولة لأخرى، وتدعى هذه العملية ب "الإحصاء البشري"، والذي يكون كل (5) خمس سنوات فما فوق، حسب تخطيط كل دولة من خلال النظام القائم فيها طبقا لسياستها الداخلية والخارجية.

علاقة بالديموغرافيا كمادة اختيارية بينها وبين الإحصاء في النظام القديم للنسق البيداغوجي للتعليم العالي الممتد على أربع سنوات، خاصة في علم الاجتماع السنة

الثالثة، أو كمادة في الفصل الرابع، (إصلاح المنظومة التعليمية/نظام LMD : إصلاح سنة 2003 وإصلاح سنة 2008)، أي تبني العمل بالوحدات الممتد على ثلاثة (3) سنوات، أو كمادة في الفصل الثاني، أي في الجدع الوطني المشترك في علم الاجتماع في إصلاح سنة 2014، نقف على تطور مفاهيم علم الديموغرافيا/السكان والتحولات الدلالية والاشتقاقية والاصطلاحية والمعنوية، التي طالتها خلال سيرورة تطور كل الظروف التي عرفتها المجتمعات، خاصة في منطقة أوروبا وعلى وجه الخصوص، تلك التأثيرات الناتجة عن الثورة الصناعية في إنجلترا سنة 1750م والثورة الفرنسية بفرنسا سنة 1789م، وما كان لأثرهما البليغ على تحول وتغيير طبيعة التفكير الفلسفي المجتمعي والاجتماعي، الأمر الذي جعل هذا العلم يعرف درجات/فترات انتقالية على مستوى التسمية، فمن اسم "الديمولوجيا" إلى اسم "المورفولوجيا الديموغرافية" إلى "الإحصاء الحيوي"[1]، مما جعل هذا المجال المعرفي القديم/الجديد يعرف تنوعا على مستوى التنظير والدراسة الإمبريقية من جهة، والأقطاب/الرواد متعددي التخصصات والعلوم كذلك من جهة ثانية.

في نفس المنحى التعددي والتنوعي، يمكن أن نعرض إلى بعض التعاريف لعلم السكان/الديموغرافيا كالتالي:

<u>أولا:</u> تعاريف علم السكان/ الديموغرافيا

- **يعرف Achille Guillard الديموغرافيا في كتابه "مبادئ الإحصاء البشري والديموغرافيا المقارنة"[2] الذي نشر سنة 1815م.**
- **الديموغرافيا هي التاريخ الطبيعي والاجتماعي للجنس البشري"[3]، بمعنى أنها دراسة تهتم بعدد السكان، وحركتهم المجالية، وظروفهم الطبيعية وأحوالهم المدنية**

[1]- محمد صفوح الأخرس، علم السكان وقضايا التنمية والتخطيط لها، دار النشر بدون، دمشق 1979، ص 15.

[2]-Eléments de statistique et de démographie comparée.

[3]- محمد صفوح الأخرس، علم السكان وقضايا التنمية والتخطيط لها، مرجع سابق، ص 15، نقلا عن معجم العلوم الاجتماعية، إعداد لجنة من الأساتذة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1975، ص 270.

وصفاتهم/خصائصهم العامة والخاصة، وبهذا التعريف يكون **Achille Guillard** أول من استعمل مصطلح/مفهوم الديموغرافيا بمعناه الحديث.

- أما قاموس الأمم المتحدة المعروف ب"القاموس الديموغرافي" فيعرف: الديموغرافيا "بأنها دراسة علمية للجنس البشري من حيث حجمه وتركيبه، وما يحدث فيها من تطور"[4].

إلا أن هذا التعريف الخاص "بهيئة الأمم المتحدة"، يكتسيه قليل من التغيير على مستوى التركيب المفاهيمي، وعليه حتى نوضح الأمر جليا أمام القراء أو المهتمين المبتدئين أو طلبتنا، سنعرض لنفس التعريف في مؤلف الدكتور "زيدان عبد الباقي" "أسس علم السكان" الذي اعتمدناه كمرجع أساسي ضمن المراجع الأساسية لإنتاج هذه التولفة المعرفية المتواضعة في مجال الظاهرة السكانية، من حيث التعريف والنشأة والتطور إلى حين التقعيد النظري وتصنيف الرواد.

يقول الدكتور "زيدان عبد الباقي" في مؤلفه هذا[5] "إن الدراسات التي تجري في هذا الموضوع (أي السكان) في اللغات الأوروبية تحت عنوان "الديموغرافيا" وهذا المصطلح كما جاء في مطبوعات الأمم المتحدة، يقصد به (الدراسة العلمية للسكان من حيث الحجم والبناء والنمو)" انتهى كلام الدكتور "زيدان عبد الباقي".

سنحاول اعتماد مقارنة بين التعريف الأول "لهيئة الأمم المتحدة" الذي ورد في مؤلف "محمد صفوح الأخرس" "علم السكان"، أنظر التعريف فيما سبق والتعريف الذي جاء في مؤلف الدكتور "زيدان عبد الباقي" "علم السكان"، سنجد أن هناك اختلافا على مستوى استعمال المفاهيم المكونة للتعريف (كمادة مفاهيمية تعريفية لعلم السكان/الديموغرافيا)، إلا أننا عندما ندقق في المعنى العام الذي يرميان إليه يمن خلال التعريفان، نفهم أن

---

[4]- نفس المرجع، ص 15، نقلا عن الدكتور "**زيدان عبد الباقي**"، في علم السكان، مطبعة جامعة دمشق، 1959، ص 3.

[5]- الدكتور "**زيدان عبد الباقي**"، مرجع سابق، ص 5.

المعنى واحد، وهذا لا يطرح أي إشكال على المستوى المفاهيمي لطريقة/لحالة الفهم والاستيعاب التي يرجوها القارئ/الطالب/المهتم، ولكن السؤال المطروح هنا هو: إذا كان "القاموس الديموغرافي لهيئة الأمم المتحدة" يتضمن التعريف، فلماذا لم يعتمد هذا التعريف بنفس سياقه اللغوي؟

في الحقيقة هذا التغيير الذي طال التعريف الذي نحن بصدده، دفعنا أولا، إلى البحث عن التعريف في أصله اللغوي الأول، أي باللغة الإنجليزية ما دام يخص "هيئة الأمم المتحدة"، ثانيا نبحث في أدبيات الترجمة، بمعنى نقل التعريف من الانجليزية إلى اللغة العربية، وقد تبين الأمر جليا، أي أن كل باحث من كلا الباحثين تعامل مع التعريف في عملية نقله من اللغة الانجليزية إلى اللغة العربية حسب المرجعية اللغوية التي تؤسس "للتأويل والفهم" لكل واحد منهما، وعليه في مجال الترجمة، يكون الأساس هو المحافظة على مضمون المعنى الأصلي للنص باستعمال المفاهيم المؤدية لهذا الغرض، انتهى التوضيح[6].

بعد هذا التوضيح للتغيير الحاصل على مستوى التركيب اللغوي للباحثان نعود إلى تعريف الديموغرافيا/علم السكان عند المفكر الفرنسي "إميل لوفاسور E. Levasseur" الذي أورده في "المعلمة الكبرى الفرنسية" في مادة الديموغرافيا بأن: "الديموغرافيا علم يعتمد على الإحصاء..." وسنعرض لهذا التعريف رغم طوله تحت ما يسمى بالأمانة العلمية في اعتماد المراجع يقول "إميل لوفاسور E. Levasseur" "الديموغرافيا علم يعتمد على الإحصاء، فيبحث في الحياة البشرية ولاسيما الولادة والزواج والوفاة والعلاقات الناشئة من عدة ظواهر، وأحوال السكان العامة الناجمة عن ذلك، وهو يبرز العناصر الصميمية التي يتألف السكان منها، وكيف تثبت المجتمعات البشرية، وتستمر أو تتكاثر

[6]- مقتطف من محاضرات الدكتور **"عبد الكريم القنبعي الإدريسي"**، وحدة الديموغرافيا، الفصل 4 نظام الوحدات، الفصل 2 إصلاح 2014.

أو تتناقص، وكيف يجتمع البشر أو يتفرقون، وما أسباب هذا التغير المادية والمعنوية"[7] انتهى التعريف.

في نفس سياق التعريف، نجد "إميل دوركايم" يطلق لفظ "المورفولوجيا الاجتماعية" أو "علم التشكل الاجتماعي" على الدراسات السكانية[8]، من حيث الشكل والصيغة المادية وعناصر التكوين والتوزيع المجالي والتنقل بنوعيه الداخلي والخارجي (الهجرة)، كما نجد كذلك المفكر الاجتماعي الفرنسي "موريس هلفاكس" يطلق مفهوم "المورفولوجيا الاجتماعية" على "علم السكان" عوض "الديموغرافيا" باعتبار اسم "المورفولوجيا الاجتماعية" هو اسم واسع وعام أكثر من اسم "الديموغرافيا"، لماذا ؟ لأنه يتوسع في بحثه ودراسته في قضايا السكان العامة، من المتغير الأول الذي هو متغير الولادة إلى المتغير الأخير الذي هو متغير الوفاة، وما بينهما من متغيرات وهي:

متغير الجنس، متغير السن/العمر، متغير الزواج، متغير الخصوبة، متغير المعدل الصافي للتوالد، متغير الهجرة، متغير الطلاق، متغير الحجم السكاني، متغير النمو السكاني ، متغير التوزيع السكاني ، متغير التكوين السكاني، متغير التركيب السكاني، متغير الأمية، متغير التعليم، متغير الصحة، متغير المهنة، متغير البنية الأساسية، متغير البنية الاجتماعية، متغير البنية الثقافية... .

الأمر الذي جعل بعض الباحثين – كما يقول الدكتور صلاح الدين نامق في مؤلفه – يطلقون اسم "المورفولوجيا الديموغرافية" على دراسة الخصائص الديموغرافية للسكان[9].

---

[7]- **"محمد صفوح الآخرين"**، مرجع سابق، ص 15، نقلا عن الدكتور **"زيدان عبد الباقي"**، في علم السكان، مطبعة جامعة دمشق، 1959، ص 3.

[8]- نفس المرجع ص 15.

[9]- الدكتور **"صلاح الدين نامق"**، دراسات في علم السكان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 1، السنة بدون، ص 24.

رغبة منا في توضيح بسيط بين "الديموغرافيا" كعلم و"علم السكان" كعلم، سنعمل على طرح مجالات اشتغال واهتمام كل واحد منها، لنقف على الممر الوحيد الذي يلتقيان فيه ويسيران على طول امتداده جنبا إلى جنب، أو بمعنى أصح، يسيران فيه بصورة التمفصل والتماهي، التي تجعل القارئ/المهتم/الطالب يُلِمُّ بالمجالين في قبضة معرفية واحدة غير قادر على التمييز بينهما فيما بين يديه، وعليه، سنحاول عرض هذا التمييز في جدول يتضمن خانتين:

<u>الخانة الأولى</u>: تخص مميزات وصفات ومجالات اهتمام اشتغال "الديموغرافيا"

مقابل

<u>الخانة ثانية</u>: تحدد هي الأخرى مجالات واهتمامات علم السكان، لنقف من خلال هذا الجدول (هاتين الخانتين) على الفروقات المميزة لكل علم على حدة من حيث مسار سياقه الميداني.

الجدول رقم 1

الخانة الأولى: مميزات الديموغرافيا	الخانة ثانية: مميزات علم السكان
❖ على مستوى التعريف - الديموغرافيا هي الدراسة العلمية للسكان من حيث الحجم والبناء والنمو[10]. - الديموغرافيا تهتم بدراسة ووصف بنية[11] المجتمع البشري. - الديموغرافيا هي مجموعة من المعلومات المنظمة التي نصل إليها بتطبيق المنهج العلمي في دراسة بيانات السكان[12]. - الديموغرافيا هي دراسة كمية ونوعية/كيفية لخصائص السكان وديناميكاتهم. - الديموغرافي علم قادر على وضع سيناريوهات مختلفة للتطور.	❖ على مستوى التعريف - علم السكان يختص بدراسة محاولات التنبؤ بمستقبل حركات السكان[13]. - علم السكان هو علم وصفي تقريري يرمي إلى دراسة النواحي السكانية[14]. - علم السكان يهتم بدراسة السمات الفرعية[15] للسكان مثل الديانات والمعتقدات والثقافة والمهن. - علم السكان يهتم باستقصاء عوامل الزيادة والتقصي أو الكثافة[16]. - علم السكان يهتم بدراسة الخصائص السلالية[17]. - علم السكان يهتم بدراسة المسائل التي تنبئ[18] عن حالة السكان المادية

[10]- د." **زيدان عبد الباقي**"، أسس علم السكان، مرجع سابق، ص 5.
[11]- د. **"محمد صفوح الأخرس"**، علم السكان، مرجع سابق، ص 16.
[12]- نفس المرجع، ص 14.
[13]- د. **"زيدان عبد الباقي"**، أسس علم السكان، مرجع سابق، ص9.
[14]- نفس المرجع، ص 10.
[15]- نفس المرجع، ص 10.
[16]- نفس المرجع، ص 10.
[17]- نفس المرجع، ص 10.
[18]- نفس المرجع، ص 10.

		والمعنوية والتعليمية والانحرافية... وكل عوامل الفساد الاجتماعي. - علم السكان يطرح حلولا تطبيقية للمشكلات الفيزيولوجية والمورفولوجية السكانية[19]. - علم السكان يهتم بتوزيع السكان عبر العالم (أي من المنطقة إلى المدينة إلى الدولة إلى القارة إلى القارات)[20]. - علم السكان يهتم بالبحث في تطوير تنمية الموارد البشرية[21].

نكتفي بهذا القدر من المميزات التي تميز كل مجال معرفي عن الآخر من خلال اهتماماته البحثية والمعرفية، وكذا طبيعة علاقتها بالعنصر البشري وفق رؤية منهجية.

[19]- نفس المرجع، ص 11.
[20]- نفس المرجع، ص 11.
[21]- **"محمد صفوح الأخرس"**، علم السكان مرجع سابق، 16.

المحاضرة الخامسة والسادسة:

ثانيا: آراء ممهدة لنظريات السكان

تمهيد

امتد الفكر السكاني على امتداد أولى الحضارات القديمة، بدءا من حضارات بلاد العراق حسب ما أثبتته عمليات أركيومعرفية لبقايا أطلال هذه الحضارات، المتمثلة في بقايا العمران الذي يشهد على وجاهة هذه الشعوب (في بلاد الرافدين أو كما يحلو لمفكري المنطقة القول ب "حضارات بلاد العراق القديم") في مواقعها، وما نقل عنها من كتابات لازالت حاضرة وموجودة حتى الآن، على شكل مخطوطات جلدية وورقية، وعلى شكل رسومات على حيطان بقايا المعابد والقصور وأبواب المدن، كلها تؤرخ لعظمة سكان هذه المنطقة ولعظيم صنيعهم وعلومهم وقوانينهم، وعليه نقول على أن رغم قدم هذه الحضارات، فقد وضعت في اعتباراتها "مبدأ السكان" أو ما يطلق عليه في العصر الراهن ب: "المسألة السكانية" التي كانت دائما محط اهتمام الحكام والمفكرين والفلاسفة ومشرعي قوانين المدينة، والساهرين على مناقشة و الحسم في القضايا العامة العالقة بالسكان (ويمكن القول على أن هذه الخطوة كانت تمثل القاسم المشترك بين الحضارات القديمة وحضارات العصور الوسطى)، خاصة الجانب المرتبط منها بعلاقات ساكنة "الدولة المدينة" باستراتيجيات سياساتها، سواء على المستوى الأمني/الدفاعي أو الاقتصادي، المتمثل في علاقة السكان بالموارد الطبيعية و الاقتصادية، مما دفع أغلب - إن لم نقل - كل مفكري هذه الحضارات وغيرها وصولا الى القرن 18م بالقول بالحجم "الأمثل للسكان".

وتتميز بلاد الرافدين بتنوع الحضارات القديمة، التي كانت مهتمة بمعالجة القضية السكانية، لما كان لهذه المنطقة من تميز وسبق التعرف على تطور الإنسانية، من خلال الاكتشافات الزراعية والتجارية والملاحية والعلمية بصفة عامة، كما حصل مع السومريون والبابليون والآشوريون انتقالا الى الحضارة الفرعونية، ثم الحضارة الصينية فالحضارة اليونانية والحضارة الرومانية، وبالتالي سنعمل على تقديم اختراق مفصل لهذه الحضارات من خلال اهتمامها المتزايد بالسكان وبالظاهرة السكانية.

1- الحضارات القديمة والفكر السكاني

1-1- الحضارة السومرية و الفكر السكاني[22]

[22]-- زهرة صالح عبد المهدية، النظريات السكانية الاجتماعية، بحث لنيل شهادة البكالوريوس، جامعة القادسية، 2017، ص 13.

تميزت "الحضارة السومرية" بكونها أقدم حضارات بلاد الرافدين (أي العراق القديم)، والتي عرفت الكتابة عن طريق اكتشاف الحروف المسمارية[23]، مما أدى الى تشريع وكتابة وتدوين قوانين الحياة العامة، التي من شأنها تنظيم الحياة في المجتمع السومري والمجتمعات الصغيرة التابعة له، ومن جملة هذه القوانين، هناك قوانين تنظيم الحياة الزوجية والجنسية/التناسلية، كما تعمل هذه القوانين على تشجيع الإنجاب ، كما تجيز للرجل أن يتخذ زوجة ثانية إذا ما تبث أن الزوجة الأولى لا تلذ أو خارجة عن قيم المجتمع السومري.

1-2- الحضارة البابلية و الفكر السكاني[24]

تعتبر الحضارة البابلية امتدادا للحضارة السومرية، حيث نجد أن الملك "حمو رابي" قد استند الى قوانين السومريين واعتمدها في تشريعاته القانونية الشهيرة[25]، والتي كانت تضم من بين بنود قوانينها قوانين تخص تنظيم الأسرة، التي كانت لها انعكاسات إيجابية على النمو الديموغرافي في المجتمع البابلي.

1-3- الحضارة الآشورية و الفكر السكاني

تميزت الحضارة الآشورية بانتسابها الى "الإله آشور" من جهة، و من جهة ثانية بسنها للعديد من القوانين التي كانت تستمد منها قوتها كدولة مركزية قوية[26]، تعتمد على جيش قوي من حيث عدد جنوده، الأمر الذي دفع الآشوريين الى تشجيع الإنجاب و معاقبة مرتكبي فعل الإجهاض.

نستخلص مما سبق ذكره، أن حضارات بلاد العراق القديم (أي بلاد الرافدين)، قد تميزت بتشريعاتها القانونية، خاصة منها التي تخص مجال الأسرة من: زواج وإنجاب وتربية الأبناء والطلاق وتعدد الزوجات والإجهاض، بصفة عامة يمكن أن نقول أن تلك القوانين كانت ترمي في عمق سنها الى تقنين العلاقة الزوجية/الجنسية، للزيادة في النسل والإنجاب من جهة، ومن ناحية ثانية حمايتها من الأضرار الجسمية[27]، وهذا يعني أن الهدف من الزواج في هذه الحضارات كان هو تشجيع النسل والتكاثر.

1-4- الحضارة الفرعونية والفكر السكاني

23- نفس المرجع، ص 13. نقلا عن د.عبد العالي الخفاف، جغرافية السكان (أسس عامة)، ط 2، 2007، ص 12.
24- نفس المرجع والنقل، ص 13.
25- نفس المرجع والنقل، ص 13.
26- نفس المرجع والنقل، ص 13.
27- نفس المرجع والنقل، ص 14

قامت الحضارة الفرعونية في مجال الفكر السكاني على مبدأ يقول "إذا أردت أن تكون حكيما فليولد لك ولد تربيه الآلهة"، وانطلاقا من هذه المقولة، عرفت الحضارة الفرعونية الأسر الكثيرة العدد، حتى قيل فيها (أن الأغنياء و الحكام يلقون صعوبة في إحصاء نسلهم)[28]، بمعنى أن الفئات الحاكمة أو الارستقراطية أو المسؤولة، كانت تميل الى تعدد الزوجات من خلال الزواج المبكر، حيث كانت تزوج البنات على سن عشر سنوات.

وقد ارتبط الفكر المصري القديم، خاصة مع الفراعنة بالسكان من حيث التزايد والتركيب والتوزيع بالأراضي الواقعة على ضفاف نهر النيل، ويعتبر المؤرخون لهذه الحقبة من خلال الفكر المصري القديم واهتمامه بالسكان، راجع إلى شساعة الأراضي وخصوبتها[29]، وعليه كانوا ينصحون الشباب بالإكثار من النسل، وتشير بعض الكتابات أن الحكيم "آني"* كان ينصح الشباب بالزواج المبكر والإنجاب لما لهذين الظاهرتين (ظاهرة الزواج المبكر وظاهرة الإنجاب والتكاثر) من أثر قوي على التماسك الاجتماعي للأسر، وعلى مكانتها وسط المجتمع وعلى فرض احترامها وقوتها بين الأسر والعائلات (ويمكن أن نلاحظ استمرار هذا الفكر إلى حدود الآن في دولة مصر، حيث لا زالت تسود ثقافة الزواج المبكر، واعتبار ارتفاع عدد أفراد الأسرة الواحدة هو في حد ذاته قوة وعزوة)، لأن الأسرة كثيرة العدد يضرب لها ألف حساب، سواء من الجهات الرسمية أو من طرف الأسر الأخرى...)، خاصة في الأرياف أو ما يعرف ب "الصعيد"، كما يمكن أن نقول استنادا إلى الدراسات السوسيولوجية والاقتصادية الحالية التي لها ارتباط بمجال السكان من حيت

---

[28]- نفس المرجع والنقل، ص 15

[29]– د. زيدان عبد الباقي، أسس علم السكان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1976، ص 31.

* **عاش الحكيم "آني" في عصر الأسرة الثامنة الفرعونية أي ما قبل عهد "اخناتون" و "امنموبي" بمئات السنين**

منذ ثلاثمائة وثلاثة آلاف سنة تقريبا في عهد **"توت عنخ آمون"** عاش حكيم مصري اسمه **"آنى"** وقد كتب عدة نصائح لتلميذه **"خونسو حت"**، وهى نصائح مكتوبة باللغة الهيراطيقية ، وتقع في تسع صحائف من ورق البردي ، عثر عليها في سنة 1870 في إحدى مقابر الدير البحري ، وهى محفوظة بالمتحف المصري ، وقد ترجمت إلى معظم اللغات الحية ،وقد اشتهرت تلك النصائح باسم ورقة **"بلاق"** لأنها حفظت بالمتحف المصري يوم أن كان في **"بلاق"**، وتشتمل تلك الصحائف على خمسين نصيحة. للمزيد من المعرفة يجب البحث في كتب "مصر القديمة" أو الأسر الفرعونية". **نقلا عن ويكيبديا**

التركيز والتوزيع، تثبت أن الأسرة الكبيرة العدد تشكل قوة اقتصادية في البلاد، وتنجح في إدارة أعمالها، مما يؤهلها في عالم الأعمال من حيازة الريادة والزعامة.

وتوضح هذه الدراسات المستقاة من الواقع الحالي المصري، والممتد على خط زمني تاريخي فيزيائي بعض أسماء العائلات والأسرة، كمثال لإضفاء الشرعية العلمية على الدراسات الإمبريقية في هذا الباب.

وفي هذا المنحى نورد قول الحكيم الفرعوني "آني" سنة 3300 ق م، يقول:

«من كان حكيما يتخذ له في شبابه زوجة تلد له أبناء فإن أفضل ما في الوجود هو بيت الإنسان الخاص به، حتى تعطيك ابنا تقوم على تربية وأنت في شبابك وتعيش حتى تراه وقد اشتد عودة وأصبح رجلا، فإن السعيد من كثرت ناسه وعياله، فالكل يوقرونه من أجل أبنائه ...»[30].

تحيل نصيحة الحكيم الفرعوني على أن الزواج المبكر والزيادة في الإنجاب تبعث على الشعور بالسعادة والاستقرار والأمان، وهذا يؤكد العرف السائد في الأرياف المصرية كما سبقت الإشارة إلى ذلك «كثرة الأولاد يعني الكثير من العزوة»[31].

---

[30] – نفس المرجع ص 31.

[31] - د. زيدان عبد الباقي، التفكير الاجتماعي، نشأته وتطوره، دار المعارف، القاهرة، 1975، ط 2، ص 11.

* لفظة **"مانو"** مثل لفظة **"فرعون"** كانت تطلق على الملوك المؤلهين، وقد اعتقد الهنود القدماء أن سبعة من الملوك المؤلهين كانوا قد حكموا العالم في الماضي، وأن الإله **"براهما"** كان قد أوحى إلى أول هؤلاء الملوك **"مانو"** القانون ثم نقل الملك بأحكام هذا القانون إلى الكهنة الذين حفظوه وتناقلوه جيلاً بعد جيل، ثم دونوه في كتاب ضخم باللغة **"السنسكريتية"** وهي اللغة الهندية القديمة. و يعود سبب وضع هذا القانون إلى تاريخ القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وكانت فكرة هذا القانون تقوم على فكرة التوحيد التي كانت سائدة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. **نقلا عن ويكيبيديا**.

لم يهدف قانون **"مانو"** إلى تحقيق المساواة وقد قسم المجتمع إلى أربع طبقات: طبقة البراهمه (الكهنه), طبقة المحاربين, طبقة الزراع والتجار، وطبقة العمال, وهناك أفراد لا ينتمون إلى أي طبقه وهم المنبوذين الذين يحرم ملامستهم أو إقامة الصلاة معهم. و اختلفت الحقوق بتدرج الطبقات، فطبقة البراهمة لهم كافة الحقوق، أما المحاربين فلهم بعض الحقوق أما الطبقات المتبقية فليس

ومن الواضح أن المصريين كانوا القدماء ينصحون أبناءهم بالإكثار من النسل استنادا على وجود أراضي شاسعة على ضفتي وادي النيل، ويعتبر حكيم الدولة آنذاك "آني" سنة 3300 ق م أول من قام بعملية نصح الشباب الفرعوني على ذلك، استنادا الى قوله السابق.

وتؤكد نصيحة الحكيم "آني" أن مفهوم السعادة لدى الفراعنة كان يتجسد في الإنجاب والإكثار من الأطفال.

5-1- الحضارة الهندية والفكر السكاني

يمكن أن نقول على أن فكر الحضارات القديمة، كان شديد التأثر بآراء وأقوال وسلوكيات الحكماء، كما هو الشأن بالنسبة للفكر الفرعوني في مجال السكان من خلال تأثره بنصيحة الحكيم "آني"، سنجد كذلك أن الفكر الهندي القديم هو الآخر كان متأثرا بتعاليم وقوانين الحكيم "مانو"*، حيث ساد الاعتقاد بين الناس في تلك المرحلة على أن كل تعاليمه وقوانينه هي مستمدة من وحي "الإله براهما"، وكما هو معلوم على أن الحضارة الهندية تميزت بوجود كثير من الديانات، وبالتالي بوجود العديد من الآلهة، كل إله يحيل على ديانة معينة برمز معين وطقوس بعينها، الأمر الذي يركز عليه المؤرخون في تفسير تنوع ظاهرة اللغة أو ما يعرف بتعدد اللهجات المختلفة كل الاختلاف عن بعضها البعض، وذلك راجع الى أن كل تعاليم الحكيم" مانو" تسير في اتجاه تشجيع الشباب وغير المتزوجين على الزواج وحثهم على الزيادة في الإنجاب.

إن هذا التوجه النابع من ثقافة معينة، نجد له جذورا في التفسير الأنتروبولوجي الذي يؤسس لعلاقة الفرد بالطبيعة، وعليه نجد أن اتساع شساعة المساحة الجغرافية

لها أي حق .هذا بالنسبة للحقوق العامة، أما الحقوق الخاصة فقانون **"مانو"** قد اعترف بتعدد الزوجات، فالبراهمة لهم أربع زوجات والمحاربين ثلاث والمزارعين والتجار اثنتين أما العمال فواحدة. **نقلا عن ويكيبيديا.**

لحضارة ما، تدفع إلى الإيمان بالتشجيع على التكاثر من خلال الزواج والزيادة في الإنجاب من أجل التوسع والسيطرة على هذه الأراضي المترامية الأطراف حتى لا تكون مطمعا للأجانب والغزاة.

يمكن القول أن الهنود القدماء تمسكوا بقانون "مانو" الذي كان تصور أنه من وحي الإله براهما، ويشجع هذا القانون المجتمع الهندي على زيادة الإنجاب.

6-1- الحضارة الصينية و الفكر السكاني[32]

بنيت الحضارة الصينية على تعاليم الحكيم "كونفوشيوس"، الذي كان يعتقد الى حد اليقين أن الزيادة في حجم السكان، أمر بديهي ما دامت المجتمعات مهددة بالهجمات والاعتداءات عليها، وبالتالي فهي في حاجة ماسة الى من يحميها من هذه الهجمات، و يرد عنها هذه الاعتداءات، بمعنى أنها لابد من توفرها على عدد من الأفراد القادرين على حمل السلاح و الدفاع عنها عندما تستدعي الضرورة ذلك بكل قوة وبأس.
وفي الموروث الثقافي الصيني، يعتبر كل رجل صيني ممتنع عن الزواج أو الإنجاب في كونه يعاني من عيب في تكوينه، الأمر الذي أدى بهم الى اعتبار حالة العزوبية جريمة ثلاثية الأبعاد:

- ✓ **بعد أول: يتجلى في حق الأسلاف.**
- ✓ **بعد ثاني: يظهر في حق الدولة.**
- ✓ **بعد ثالث: يطبع حق الجنس[33].**

الأمر الذي جعل "كونفوشيوس" يحدد مسؤولية الدولة في توزيع السكان توزيعا عادلا على مناطق المملكة ، وذلك بناء على توافق بين مساحة الأرض (كرقعة جغرافية) وعدد السكان (كأفراد منتشرين في هذه الرقعة الجغرافية)، إضافة الى تحميل الدولة مسؤولية التوزيع، وعمل كذلك على حصر عوامل نقص حجم السكان المتمثلة في:

- ✓ **نقص في الغذاء**
- ✓ **الزواج المبكر**
- ✓ **الحروب**
- ✓ **ارتفاع تكاليف الزواج**
- ✓ **الكوارث الطبيعية[34]**

---

[32]- زهرة صالح عبد المهدية، مرجع سابق، ص 15. نقلا عن زيدان عبد الباقي، (أسس علم السكان).
[33]- زهرة صالح عبد المهدية، مرجع سابق، ص 15. نقلا عن زيدان عبد الباقي، (أسس علم السكان).
[34]- زهرة صالح عبد المهدية، مرجع سابق، ص 16.

كما اهتمت الصين القديمة في بناء حضارتها على العنصر الإنساني، حيث أولته اهتماما فائقا وعناية كبيرة، وذلك يظهر في كتابات حكمائها القدامى[35]، وعلى رأسهم الفيلسوف "كونفوشيوس" كما سبقت الإشارة الى ذلك، انطلاقا من فرضية عامة مفادها أن الزيادة في عدد السكان يؤدي حتما إلى ضعف ونقص في الإنتاج الاقتصادي، مما يؤثر سلبا على مستوى المعيشة لأفراد المجتمع، ولتخطي هذه الأزمة الافتراضية من طرف مفكري الصين القدامى، تم طرح فرضية أخرى لإنجاح عملية الخروج من الأزمة وتخطيها في حالة حدوثها، وتجنب كل ما يمكن أن يحصل من صراعات يمكن أن تحصل من خلال المشاكل الاقتصادية، وترمي الفرضية المستخلصة من الأزمة، إلى إلزامية وجود علاقة مثالية بين عدد السكان والموارد الطبيعية، مما يدل وبقوة على أن الفيلسوف/الحكيم الصيني "كونفوشيوس" أول من قال ب "الحجم الأمثل للسكان"[36]، الأمر الذي جعل كل دراساتهم في مجال السكان تنطلق من ثلاثة (3) متغيرات.

- متغير الولادات عن طريق الزواج المبكر.
- متغير نقص الغذاء عن طريق الزيادة في حجم/عدد السكان.
- متغير الحروب الناتجة عن طريق البحث عن مناطق ذات مساحات يمكن أن تستوعب أعداد المنتقلين/المهاجرين إليها، مع وفرة الموارد الطبيعية التي تؤمن الحاجات الفيزيولوجية الأولى والأساسية للبقاء والاستمرار.

إن اهتمام الصينيين القدامى بالفكر السكاني كان يغلب عليه الطابع التخميني من جهة، ويفتقر الى الأسس العلمية من جهة أخرى. لماذا؟.

فعلا، إنه سؤال منهجي إلى حد الاعتراف بصدق وحجة الفرضيات المتبناة من طرف حكماء الصين، أو العمل على تفنيدها ودحضها، لأن العمل بالفرضيات يستوجب – بل

[35] – نفس المرجع، ص 82.

[36] – نفس المرجع، ص 82.

يفرض – أن تكون هناك دراسة إمبريقية، تصل فيها إلى نتائج تؤكد أو تفند صحة ومصداقية الفرضيات التي لم يعتر لها على أي أثر في كتاباتهم، أو في تتبع مسارات حضاراتهم القديمة، مما ينفي عن اهتماماتهم بالسكان كل مصداقية علمية، ويضعها في إطار من التخمينات والسياسات الإجرائية الآنية، كمحاولة ظرفية لتبرير "الحجم الأمثل للسكان".

إن إيمان الصينيين القدماء بفلسفة "كونفوشيوس" كان يسير بالمجتمع إلى أرقى مستويات العيش، عن طريق تنظيم الأسرة (تعتبر الأسرة النطاق الأول للتجربة الأخلاقية) باعتبار أنها النقطة الأولى التي تبدأ منها الأخلاق الفاضلة بين الأبناء في الأسرة الواحدة، حيث يعامل الأب أبناءه بنفس المعاملة التي كان ينتظرها ويتمناها من أبيه، الشيء الذي دفع بهم الى عدم اعتبار زيادة السكان شرا، مما حدا بهم إلى عدم تحديد النسل وقبولهم فكرة" الحجم الأمثل للسكان" Optimum size، وتقوم هذه الفكرة على التساو بين عدد السكان وقوته الإنتاجية، والإخلال بعنصر المساواة هذه يؤدي حتما إلى انخفاض مستوى المعيشة مما ينجم عنه الفقر المدقع.

يمكن أن نقول أن الحضارة الصينية في تعاملها مع تعداد السكان، أو بمعنى أصح في تعاطيها مع المحافظة على الحجم الأمثل للسكان، كانت تنطلق من معادلة أساسية تنضوي تحت فرضية طبيعية، بمعنى أن المعادلة يجب ألا تحدد أو تؤثر على الفرضية.

فالمعادلة لدى الحضارة الصينية تؤمن بأن الزيادة في الإنجاب هي "خير وبركة" وليس شرا"[37]، وأن الفرضية الطبيعية (أي نسبة إلى الطبيعة وعلاقة الوجود الإنساني في الطبيعة) تفترض "أن لكل مجتمع حجم سكاني يتناسب مع قوة إنتاجه"، وبالتالي تدخل الحكومة في مراقبة والمحافظة على هذا الحجم الأمثل، هو أمر ضروري ولها كل الصلاحيات ويعد ضمن اختصاصاتها، لأنه إذا اختل توازن حجم السكان مقارنة بقوة

[37] – د. زيدان عبد الباقي، أسس علم السكان، مرجع سابق، ص 32. نقلا عن Dawson. M.n. Ethic of confucius comments 1931. P 23.

الإنتاج، سيؤول المجتمع إلى انخفاض مستوى المعيشة الذي يفرز ظاهرة الفقر والبؤس في المجتمع.

إن الاهتمام بالسكان في الحضارة الصينية كان يمجد عنصر الأخلاق عن طريق التربية، أي تربية الأبناء على ترسيخ المنظومة القيمية والأخلاقية للمجتمع برمته، لأن ما يميز الفكر الصيني القديم وحضارته عن باقي الحضارات، هو أنه كان يعنى بالأسرة ويعتبرها الخلية الأولى للتقعيد الأخلاقي لدى الأفراد في المجتمع.

المحضارة السابعة والثامنة:

1-7- الحضارة اليونانية والفكر السكاني[38]

تميزت الحضارة اليونانية خاصة الفكر اليوناني الذي طبعت مراحل التطور الفلسفي من "الميتوس" إلى "اللوغوس"* بالاهتمام بالسكان، لكن مع اختلاف طفيف بالنسبة للحضارات السابقة، وذلك راجع إلى أن الحضارة اليونانية كانت تتميز بسيادة "دولة المدينة" وبتلك الصراعات المستمرة بين المدن التي كانت تشكل دولا قائمة آنذاك مثل "أثينا"، "أيونيا" "إسبارطا" "مالطا"... والتي لعبت فيها الصراعات دورا أساسيا في انتقال التفكير الفلسفي من مرحلة "الميتوس" (التفكير الخرافي) إلى مرحلة "اللوغوس".

هناك العديد من فلاسفة الفكر اليوناني/الحضارة اليونانية الذين اهتموا بالمسألة السكانية، إلا أن "أفلاطون" و"أرسطو" يعتبران من خلال كتاباتهما على أنهما يشكلان التفوق والامتياز والحضور القوي في هذا الاتجاه بالضبط (المسألة السكانية)، وعليه سنعرض لكل منهما من خلال فكره في السكان (الظاهرة الديموغرافية/ السكانية).

---

[38] - د. السيد عبد العاطي السيد علم اجتماع السكان دار المعرفة الجامعية مصر مرجع سابق ص 83.

* **لوغوس**) بالإغريقية) (Λούος :بالإنجليزية (Logos)

و هي من أشد الكلمات أهمية وأكثرها غموضا في الفكرين الغربيين الديني والفلسفي، إذ تدل في سياقات شتى على مدلولات متعددة، كالخطاب، اللغة، العقل الكلي، كلمة الإله، من بين معان أخرى.

هرقليطس الفيلسوف اليوناني القديم اهتم بشكل عظيم بـ اللوغوس، فقد اعتبره "القانون الكلي للكون". يقول **هرقليطس** : " كل القوانين الإنسانية تتغذى من قانون إلهي واحد : لأن هذا يسود كل من يريد، ويكفي للكل، ويسيطر على الكل". ووافقه **الرواقيون** وقالوا أن العقل أو اللوغوس هو المبدأ الفعال في العالم، وهو الذي يشيع في العالم الحياة، وأنه الذي ينظم ويرشد العنصر السلبي في العالم ويعنون "المادة". وقال **ذيوجانس اللائرسي** عن مذهب الرواقيين : "يقول الرواقيون أن اللوغوس هو المبدأ الفعال في الهيولي، إنه الله، وهو سرمديّ، وهو الفعال لكل شيء من خلال المادة."

قال **فيلون** عن اللوغوس أنه أول القوى الصادرة عن الله، وأنه محل الصور، والنموذج الأول لكل الأشياء. وهو القوة الباطنة التي تحيي الأشياء وتربط بينها. وهو يتدخل في تكوين العالم، لكنه ليس خالقاً. وهو الوسيط بين الله والناس، وهو الذي يرشد بني الإنسان ويمكنهم من الارتفاع إلى رؤية الله. ولكن دوره هو دائماً دور الوسيط. ويقينه بأنه " إلهي " ويميزه من الله بأداة التعريف التي تضاف إلى الله ولكنها لا تضاف إلى اللوغوس.
نقلا عن ويكيبديا

- **"أفلاطون" والفكر السكاني**

يعتبر "أفلاطون" من أقوى فلاسفة اليونان وأكثرهم ذيوعا وصيتا وكتابة، خاصة من خلال محاوراته (محاورة كراتيل، محاورة فيدون، محاورة بارمنيدس، محاورة تياتيتس، محاورة أيتوفرون، ومحاورة دفاعية سقراط)، بل تعدت كتاباته مجالات البحث في المباحث الفلسفية (مثل: مبحث الخير، مبحث الوجود، مبحث الحقيقة، مبحث الجمال...)، إلا أن الملاحظ ليست لديه كتابات خاصة في مجال الفكر/الظاهرة السكانية، وإنما كان يناقش حجم السكان في علاقته بدولة المدينة وحكومتها، والاعتماد المتبادل من كلا الجهتين في بعض كتاباته أو كتبه كمحور ضمن محاور الكتاب، وغالبا ما كان يرمي في مناقشته لحجم السكان بأحقية وضرورة تدخل الحكومة القائمة في تنظيم هذا العدد، وذلك من خلال السهر على مراقبة عقود الزواج مراقبة شديدة، بهدف محاصرة عدد السكان المرغوب في تواجده داخل "المدينة الدولة"/"دولة المدينة"، حتى لا يكون هناك انفلات سواء على مستوى الزيادة أو النقص، لأن هذا الأخير يؤدي الى خلل في توازنات إستراتيجيات الحكماء في تنظيم "دولة المدينة"، وعليه فإن تدخلهم في المحافظة على مستوى العدد اللائق، أمر لابد منه وهو بديهي في سياسة "دولة المدينة"/"المدينة الدولة".

من هذا المنطلق نجده (أي أفلاطون) يحدد عدد سكان "دولة المدينة"/"المدينة الدولة" في كتابه القوانين[39] بالعدد المناسب وهو 5040 نسمة، لكن مع بعض المرونة في التعامل مع مستوى الزيادة أو مستوى النقص (كما سبقت الإشارة إلى ذلك قبل قليل)، فعلى مستوى الزيادة، يقر "أفلاطون" بتدخل الدولة عن طريق سن سياسة أو قوانين لتحديد سن الزواج وتحديد النسل وتنظيم هجرة الأفراد، أما على مستوى النقص العددي، فيمكن لحكومة "الدولة المدينة"/"المدينة الدولة" أن تعتمد نفس القوانين ونفس السياسة لكن بطريقة مناقضة، بمعنى العمل على تشجيع الزيادة في الإنجاب عن طريق رفع القيود

[39] – نفس المرجع ص 33.

عن سن الزواج، وكذا تحرير الأفراد من الخضوع إلى قوانين التنقل (الهجرة) من مكان إلى مكان آخر بهدف معين، وتمتعهم بحق حرية التنقل والترحال.

وقد عثرت في بعض كتابات أفلاطون في هذا المنحى، أن الحجم الأمثل للسكان يجب أن ينحصر في 5040 نسمة كعدد ساكنة "دولة المدينة"، دون احتساب النساء والأطفال والعبيد، لأن هذه الفئات من السكان لا يعتبرها "أفلاطون" من سكان "الدولة المدينة" الرسميين، أي أنهم ليسو بمواطنين يونانيين رسميين، أما إذا تم تعداد كل الساكنة في بلاد اليونان دون إقصاء الفئات الثلاثة السابقة الذكر، فسيتضاعف عددهم إلى عشرة (10) أضعاف، بمعنى أنه يمكن أن يصل إلى حوالي 50400 نسمة[40].

متغير آخر اعتمده "أفلاطون" في تحدي متغير النقص العددي للسكان، وهو عنصر التجنيس بالنسبة للأجانب الراغبين في ذلك[41] من جهة، كما تجده كذلك خاصة في كتابه "الجمهورية" يبحث عن النسل الممتاز وذلك عن طريق تحديد سن الزواج للذكور والإناث على حد سواء، فسن الزواج بالنسبة للذكور حددها فيما بين 35 و 55 سنة، أما بالنسبة للنساء فبين 20 و35 سنة حتى يكون النسل ممتازا[42].

إلا أن المفارقة العجيبة في فكر "أفلاطون" في قضية السكان، هي أنه يقر بإمكانية وجود اختلاف في عدد السكان، لكن حسب الظروف وطبيعة هذه الظروف، لأنه كان يؤمن ويؤكد مصداقية وصلاحية الفئة المسيرة للدولة عن المحافظة على الحجم الأمثل للسكان وذلك بممارسة ضغوطات ملزمة للسكان في تجنب كل ما يمكن أن يزيد عن الحجم المرغوب فيه، ومن بين هذه الضغوطات لجأت الحكومة اليونانية في إحدى مراحل تطور

---

[40] – نفس المرجع ص 83 نقلا عن K.C. Kammeyer et Ginn. An introduction to population,The Dorsey Press, Chicago, 1986. P 24.

[41] – وردت إباحة التجنيس بالجنسية اليونانية للأجانب في مؤلفه "القوانين" الكتاب الخامس.

[42] – نفس المرجع ص 31.

حضارتها إلى سن قانون أو نظام التوريث* كآلية لردع السكان بعدم تخطي العدد المفروض من الجهات الخاصة، إضافة إلى آليات أخرى رادعة جدا مثل الإجهاض أو وأد/قتل الأطفال الذين يولدون مشوهين.

- **"أرسطو" والفكر السكاني**

يشترك "أرسطو" مع "أفلاطون" في الاهتمام بالفكر السكاني عن طريق الحجم السكاني من خلال تأملاتهما الفلسفية، لكن مع فارق واضح في مراحل كل واحد منهما في هذا الباب، حيث نجد "أرسطو" يتخطى النزعة الاجتماعية التي تؤسس حسب منظوره لغاية الحياة الاجتماعية في "الدولة المدينة"/"المدينة الدولة" وهي "الفضيلة"، والتي تتحقق حسب منظوره من خلال العدد المناسب والكافي لتحقيق رفاهية المجتمع اليوناني، والذي تستطيع الحكومة أن تتحكم فيه، وتعمل على تدبير شؤونه العامة والخاصة بكل كفاءة عالية تمكن من الاستجابة لمتطلباته.

إلا أن "أرسطو" سرعان ما انقلب على هذا التوجه نحو الفضيلة – كما سبقت الإشارة إلا ذلك– الى الحديث عن إجراءات تعسفية يجب أن تعتمدها الحكومة في حالة زيادة الحجم السكاني في "المدينة الدولة"/"الدولة المدينة"[43] وهو تطبيق هذه الإجراءات:

- ✓ **الإجهاض قبل أن تدب الحياة في الجنين.**
- ✓ **إعدام الأطفال ناقصي التكوين والمشوهين وفاسدي الأخلاق.**
- ✓ **تحريم الزواج للشيوخ والعجزة وعلى كل من يبلغ 50 سنة من العمر[44] فما فوق.**

* نظام التوريث هذا، نظام تحافظ به الحكومة على الحجم الأمثل للسكان، وذلك عن طريق توريث الأب لكل ممتلكاته لأحب الأبناء لديه، أما الآخرون فيوزعون عن الأسر التي لم ترزق بالأبناء أو ليس لديها أبناء، وإذا اختل ميزان الزيادة في حجم السكان تعمل الحكومة على إرسال ما يزيد عن العدد المحدد إلى بعض مستعمراتها للحفاظ على الحجم الأمثل للسكان، وتفاديا لكل ما يمكن أن يحدث خللا في ميزان التعداد السكاني لجأت الدولة الى تحديد سن الزواج، وتحديد النسل، والهجرة أو تنقل الأفراد.

43 – نفس المرجع ص 31.

44 – نفس المرجع ص 34.

عندما نحاول أن نقارن بين الحجم الأمثل للسكان عند "أفلاطون" و"أرسطو"، سنجد أن "أرسطو" يقدر عدد السكان المناسب "لدولة المدينة" ب 100.000 نسمة (عكس ما قدره "أفلاطون" ب 5040 نسمة)، على اعتبار أن هذا العدد هو الذي يتيح توافقا بينه وبين السعة المجالية/الجغرافية (يعني توافق عدد السكان مع مساحة الأرض، وبالتالي هذا التوافق يؤدي إلى خير ورفاهية "الدولة المدينة"/"المدينة الدولة").

أما الفكر اليوناني المتمثل في الفلسفة اليونانية، فيعتبر مرجعا أساسيا في ظهور فلسفات جديدة خاصة في العصور الوسطى (سيادة العقلانية الدينية)، والعصر الحديث والمعاصر (سيادة العقلانية العلمية)، وذلك لما له (الفكر اليوناني) من ثقل معرفي في جل إشكاليات "الوجود من حيث أنه متحرك" (أرسطو في دراسته للوجود: المحرك، الحركة و المسافة)، وبالتالي كغيره من الفلسفات القديمة، انصب اهتمامه في البحث في ماهية السكان ومدى تأثير علاقة حجم السكان بمجال التخطيط السياسي للحكومة القائمة، ومن بين أهم فلاسفة اليونان الذين اهتموا بحجم السكان نجد أفلاطون وأرسطو، حيث انكبت بعض كتاباتهما على هذا الجانب الذي لم يكن معروفا آنذاك بالشكل المتعارف عليه فيما بعد، إنهما يشتركان في موقف موحد ورؤية متكاملة، حول تأثير حجم السكان على الأنشطة السياسية باعتبارها شيء أساسي وضروري في المجتمع اليوناني[45].

إن الحجم الأمثل للسكان بالنسبة للفيلسوفين، هو ذلك العدد/الحجم السكاني الذي تتحقق من خلاله طريقة المراقبة والمحافظة على أمن ورفاهية ساكنة "دولة المدينة"/"الدولة المدينة".

في الاتجاه المعاكس ل"أفلاطون"، نجد "أرسطو" – كما سبقت الإشارة – هو الآخر يقر بضرورة الحفاظ على الحجم الأمثل للسكان، لأن هذا الأخير يؤثر بدوره على الدولة

[45] – نفس المرجع ص 83.

خاصة من ناحية العلاقة الموجودة بين السكان والملكية في المجتمع[46]، لأن هذه العلاقة في نظره هي التي تعمل على تحقيق رفاهية واستقرار الدولة.

لماذا يقر "أرسطو" بهذا الإقرار؟، سؤال سنحاول أن نجد له جوابا في كتاباته الخارج ميتافيزيقية، والتي تتمثل في أن الدولة ما دامت تستجيب للمتطلبات الأساسية للسكان، فإن الحجم الأمثل للسكان يجب أن يكون تحت المراقبة والسيطرة، لكن في حالة العكس، أي عندما يزيد عدد السكان في المدينة، فإن الدولة تبدأ في الشعور بعدم الاستجابة للحاجات الإنسانية للسكان، الأمر الذي ينتج عنه تغيرا اجتماعيا على مستوى المنظومة القيمية والأخلاقية لهؤلاء السكان، فيبدأ الفقر في الظهور والانتشار، ثم تأتي بعده الجريمة، فالثورة عندئذ تكون العيار الذي انفلت من بين أيدي الدولة المدينة...

إن الاستنتاج الهام من هذه الإطلالة المختصرة جدا للحضارة اليونانية المتجسدة في الشق المتعلق بالفكر السكاني من خلال كتابات "أفلاطون" و"أرسطو"، هو أن قوة الدولة لا تقاس بأكبر عدد من السكان، ولكن الحجم الأمثل للسكان هو المقياس العقلاني للحكم على طبيعة الدولة[47]، لأن "أرسطو" يؤمن على أن كبر حجم السكان يؤثر سلبا على الموارد الطبيعية التي يحتاجها المجتمع لاستمرار بقائه.

إن ما يمكن أن نستنتجه ونضعه في الاعتبار كذلك بموضوعية وحياد كبيرين، هو أن الحضارة اليونانية كمثيلتها الحضارة الصينية، لم تعرفا في تلك المرحلة أي عمل إمبريقي لإضفاء الشرعية العلمية لتلك الكتابات في مجال السكان.

8-1- الحضارة الرومانية والفكر السكاني[48]

---

[46] – نفس المرجع ص 85.

[47] – نفس المرجع ص 85.

[48] – نفس المرجع ص 87.

* اسبارطا مدينة يونانية. كانت تشكل "الدولة المدينة"

قامت الحضارة الرومانية على سيادة الروح العسكرية شأنها في ذلك شأن الدولة القائمة في "اسبارطا"* في الحضارة اليونانية، حيث كانت تعتمد هذه الأخيرة على الشباب الأصحاء الأقوياء، من خلال ممارسة التدريبات العسكرية والتداريب الرياضية الشاقة، التي تؤهلهم الى اكتساب مؤهلات فكرية وقوة جسدية ومهارات قتالية احترافية، تميز الشعب الإسبارطي (نسبة الى مدينة اسبارطا) عن غيره من الشعوب الأخرى (أي سكان مدن أخرى مثل "مالطا"، "أيونيا"، "أثينا") التي كانت كل واحدة منها تشكل الدولة المدينة.

وعلى اختلاف الفكر الصيني القديم والفكر اليوناني في السكان، نجد الحضارة الرومانية في الفكر السكاني، تتميز بعكس ما تميزت به الحضارتين السالفتين الذكر، حيث كان الفكر السكاني في الحضارة الرومانية ينادي بالزيادة في معدلات الإنجاب عن طريق الزواج المبكر، لأن الفكر الروماني هو فكر توسعي استعماري، وبالتالي نجده يؤمن بالزيادة في عدد السكان، وذلك بهدف الدفاع والحماية من جهة، والتوسع من جهة أخرى، وعليه كان القانون الروماني يتطلع إلى تحقيق أكبر نمو ديموغرافي عكس نظيريه.

في نفس المسعى، كان الشباب الروماني يعد بشكل كبير وصارم للحروب، وبالتالي كانت تعطى لهذه الفئة من المجتمع الاهتمام الكبير و الكثير في نفس الآن، مما جعل الحث على الزواج المبكر والزيادة في الإنجاب للزيادة السكانية، كرافد أساسي للزيادة في القوة العسكرية و الحربية[49] للحضارة الرومانية.

وقد عرفت الحضارة الرومانية كالحضارة الصينية برفضها القاطع للعزوبية، مع تحديد ما يسمى بمعوقات النمو السكاني، التي حددت في بعض كتابات الفكر الروماني في ما يلي:

- ✓ **الفيضانات**
- ✓ **الأمراض والأوبئة**
- ✓ **المجاعات**
- ✓ **الحروب**
- ✓ **الثورات**
- ✓ **الحيوانات المتوحشة[50].**

[49]- . زهرة صالح عبد المهدية، مرجع سابق، ص 18.
[50]- زهرة صالح عبد المهدية، مرجع سابق، ص 18.

لقد ترك الرومان مسألة السكان تسيير سيرا طبيعيا، وإن كان بعضهم عمل على تشجيع الإكثار من الإنجاب، من أجل زيادة عدد السكان لاسيما وأن بلادهم كانت تخطو نحو إمبراطورية رومانية، الشيء الذي يتطلب العديد من القوى البشرية لخوض الحروب، مما جعلهم يعتبرون النسل من الأمور المحمودة، وقد عملوا كذلك كل ما في وسعهم في التفكير في مختلف الوسائل الملائمة للإكثار من معدلات الإنجاب لدى السكان.

يمكن أن نقول أن الفكر الروماني كان يتميز بالتشجيع على الزيادة في الإنجاب، لأنه كان يرى في عدد السكان المرتفع والكبير قوة بشرية هائلة، خاصة وأن الرومان في تلك الحقبة كانوا يسعون إلى التوسع وبناء إمبراطورية رومانية عظيمة هذا من جهة، أما من جهة ثانية، كانت الحضارة الرومانية وقتئذ تستمد تعاليمها من الديانة المسيحية التي كانت بدورها تشجع على زيادة الإنجاب وتركها للخالق سبحانه وتعالى[51].

شيء آخر تميز به الفكر الروماني يتمثل في كونه كان يؤمن بشدة، على أن حجم السكان يكون سببا مباشرا ودافعا قويا وراء الحروب، سواء في حالة ارتفاع عدد السكان الذي يقابله انخفاض في الموارد الطبيعية/الغذائية أو العكس، أي عند انخفاض عدد السكان الذي يقابله ارتفاع في الموارد الطبيعية/الغذائية التي تزيد عن سد حاجيات السكان.

ولتأكيد هذه المعادلة الخفية وراء قيام الحروب، يضرب لنا الدكتور "زيدان عبد الباقي" مثالا حيا ومعاصرا كتأكيد على إيمان الفكر الروماني بهذه الفرضية، رغم أن الفاصل الزماني كبير جدا، مثال: غزو "اليابان" "للصين" سنة 1925 وغزو "إيطاليا" "للحبشة" و"ليبيا" نتيجة ارتفاع عدد السكان وقلة الموارد في كل من "اليابان" و"إيطاليا"[52]، بمعنى أن حل مشكلة الحجم السكاني هو الغزو والاستعمار.

---

[51]- زهرة صالح عبد المهدية، مرجع سابق، ص 36.

[52] – . زهرة صالح عبد المهدية، مرجع سابق ص 35.

9-1- الحضارة الفارسية والفكر السكاني

لقد أخذ الفرس بفلسفة "زوروستر" وهي فلسفة لا تختلف عن فلسفة "كونفوشيوس" وبالتعاليم الدينية، التي وصلت إليهم فيما بعد عن طريق نبي الله نوح، وتتلخص في قوله رضي الله عنه " أتمروا وأكثروا واملؤا الأرض".

المحاضرة التاسعة والعاشرة:

2-الديانات السماوية والفكر السكاني

2-1- الديانة العبرية والفكر السكاني

تعتبر الديانة اليهودية من الديانات السماوية التي اهتمت بالعلاقة الزواجية، رغم اختلافها مع الديانتين المسيحية والإسلام حول إشكالية تعدد الزيجات، لأن كل ديانة تنظر وتقنن تعدد الزيجات كظاهرة اجتماعية انطلاقا من كتابها السماوي وانطلاقا كذلك من الموروث الثقافي الذي طبع تطور المسار الأنتروبولوجي لتطور المجتمع ثقافيا وتاريخيا وجغرافيا واقتصاديا، وبالتالي فالديانة اليهودية تنظر الى الزواج نظرة هامة وضرورية في حياة الجنس البشري، لأن الرجل أو المرأة خارج إطار العلاقة الزواجية يعتبران إنسانين غير كاملين[53].

والزواج في الديانة اليهودية هو فرض وليس اختيار، لأن الغاية منه هو الإنجاب والزيادة في حجم السكان، لأنه يدخل ضمن الشعائر الدينية[54]، وبالتالي فعدم الزواج بالنسبة لهم يسبب غضب الله، بل ذهبوا الى أبعد من ذلك حيث اعتبروا عدم الزواج للقادر عليه بمثابة جريمة تعادل جريمة قتل النفس، الأمر الذي جعلهم يقدسون الأسرة لأنها تقوم على الإنجاب بهدف الزيادة في حجم السكان (... والزوجة الشرعية نفسها إذا لم ترزق بولد ذكر تبيح لزوجها أن يتخذ من جاريتها أو جارية زوجها فراشا، عسى أن يأتي منها بابن يخلد ذكرى الأسرة، فإذا جاءت جاريتها بابن كان ابنا للزوجة وليس للجارية التي ولدته)[55]. مقتطف كما ورد في المقال.

ولم تحرم اليهودية تعدد الزوجات، بل أباحته وذلك متروك لمشيئة وقدرة الرجل، وقال المفكر والمؤرخ "نيوفلد" في كتابه "قوانين الزواج عند العبرانيين والأقدمين" أن التلمود والتوراة أباحا تعدد الزوجات[56]، انطلاقا من العلاقة الزواجية المتعددة النساء لبعض الأنبياء (فإبراهيم عليه السلام كان متزوجا من امرأتيْن، الأولى اسمها "سارة"[57]، وقد كانت سارة عاقراً لا تُنجِب، وقد كانت رغبةُ النّبيّ عليه السّلام أن يكونَ له ولدٌ فزوّجته بجاريتها واسمها "هاجر"، وقد شاءت إرادة اللهِ أنْ تُنجِب سارة وهي عجوز في عمر الثمانينات، فأنجبَت له إسحاق، بعد أن بشرتها بولادته الملائكة عليهم السلام، ومن بعد إسحاق يعقوب، أمَا هاجر فأنجبت إسماعيل، وقد دبّت الغيرة الشديدة في قلب سارة عندما تزوّج إبراهيم من

- الزواج في اليهودية. ويكيبديا[53]
- نفس المرجع.[54]
- نفس المرجع. مقال الزواج رباط مقدس.[55]
- نفس المرجع.[56]

هاجر، فذهب بها بعيداً وأسكنها في وادٍ غيرِ ذي زرع، وهو وادي مكة، وهناك العديد من الروايات تشير إلى أنّ إبراهيم عليه السلام تزوّج بعد وفاة سارة بامرأتين، الأولى اسمها "قطورا بنت يقظان"، وهي امرأة كنعانية، والتي أنجبت له ستةً من البنين، والثانية اسمها "حجورا بنت أزهير[58]، أما يعقوب فتشير كتب الديانة أنه تزوج أربعة نساء وكذا النبي موسى علية السلام تزوج من أربعة نساء[59]، كما أن سليمان وداوود عليهما صلوات الله كان لكل واحد منهما حوالي مائة زوجة.

كل هذه النظرة التاريخية المختصرة بشكل شديد للديانة اليهودية، تؤكد على أن الزواج كظاهرة إنسانية كان حاضرا بقوة في المجتمع العبري، بدعوى الإنجاب والتكاثر للزيادة من عدد وحجم السكان العبريين.

2-2- الديانة المسيحية والفكر السكاني

يشجع مفكرو المسحية على زيادة الإنجاب وعدم التدخل بتنظيم أو بتحديد تلك المسألة، باعتبارها من اختصاص الخالق سبحانه وتعالى.

يعتبر الزواج في الديانة المسيحية عقدا بين الرجل والمرأة غير منحل[60]، بمعنى واضح أنه يصعب الحصول على إذن بالطلاق من أحد الشريكين في العقد، وقد تعددت طرق الانفصال بين الرجل والمرأة حسب التيار المسيحي اللذان ينتميان إليه مثل التيار الكاثوليكي الذي يقر بفسخ العقد أو بطلانه ، أما في التيار البروتستانتي فالأمر يكاد يكون مشابها باعتبار الزواج ليس أمرا مقدسا، الأمر الذي ينفي على العلاقة الزوجية ذلك تلك النظرة الدينية المحضة في الاستمرار في جو من التنافر والجدب والطرد الذي يطبع العلاقة بين الذات والآخر، وبالتالي إما أن يكون هناك اتفاق مبدئي لقوانين ضمنية يقبل بها الرجل والمرأة في تأسيس العلاقة الزوجية، أو أن يحصل الانفصال أو الطلاق بشكل ودي حسب أعراف وتقاليد لاستمرار الاتصال والتواصل بين طرفي العلاقة الزوجية خاصة في وجود أطفال، أفضل بكثير من اللجوء الى التعنت واستعمال سلطة ما انطلاقا من وضعية معينة.، أما التيار الأرثوذكسي فيرى ضرورة وجود تسهيلات في عملية التسوية والاتفاق الخاص بالطلاق متجاوزا قدسية العلاقة الزوجية التي تؤدي في أغلب الأحيان الى ظهور ظواهر اجتماعية في المجتمع تفسد الصورة العامة على هذا الارتباط وتخرجه من خانة السكينة والارتياح والقدرة والنية الصالحة للمحافظة على استمرار الجنس البشري، لتدخله في خانة الصراع

36- زوجته "سارة" هي ابنة عمه، ويُقال إنّ اسمها الأصلي "يساره"، وعند تعريبه أصبح "سارة"، وقد كانت من أجمل النساء في عصرها، وعندما تزوجها النبي إبراهيم عليه السلام كان عمرها سبعة وثلاثين عاماً، أمّا زوجته "هاجر" فهي جارية قبطية أُهديت إليه، وسارة هي التي زوجت النبي بها لعلمه أنه يرغب في إنجاب الأبناء، فأنجبت له إسماعيل، أما زوجته "قطورا" فأنجبت "مدين"، و"زمران"، و"نشق"، و"سرج"، و"يقشان"، وواحد غير معلوم الاسم، أما أبناؤه من زوجته "حجون" فهم "كيسان"، و"لوطان"، و"سورج"، و"أمم"، و"نافس".

37- موقع موضوع. عاتكة البوريني.عنوان المقال: زوجات النبي إبراهيم.

38- تزوج موسى عليه السلام من أربع نساء، وهن:" سفور"ة: وهي أم جيسون والعيزر، "بنت قيني". "جبشية". "بنت حباب" نفس المرجع.

- ويكيبيديان الزواج والطلاق عند المسيحيين.[60]

بين الجنسين حتى باتت أغلب المجتمعات تعرف عزوفا عن الزواج من كلى الجنسين خاصة أوروبا وأمريكا، (أي ما يعرف بالفردانية في العلاقة الحميمية أو معاشرة غير شرعية، بمعنى علاقات جنسية بلا زواج شرعي تتسم بالدوام والاستقرار **Concubinage**).

ويعلي الكتاب المقدس من شأن الأسرة ومن قيمتها كنواة محورية في المجتمع، حيث يعتبر الكتاب المسيحي أن الزواج سر من الأسرار السبعة المقدسة [61] (1- سر المعمودية "أعمال الرسل 22: 16"، 2- زيت الميرون "رسالة يوحنا الأولى 2: 20،27"، 3- القربان المقدس "كورنثوس الأولى 11: 24، سفر إشعياء 62: 3"، 4- سر التوبة "يوحنا 20: 23"، 5- سر مسحة المرضى "لوقا 10: 24، مر 6: 13،يع 5: 14"، 6- سر الزيجة/الزواج "نشيد الإنشاد 3: 11"، 7- سر الكهنوت " سفر الأعمال 6:6، رسالة غلاطية 9:2، رسالة تيموثاوس الأولى 14:4، رسالة تيموثاوس الثانية 6:1، رسالة العبرانيين 2:6، تث9:34.)، التي تجعل من جسدي الزوجين جسدا واحدا.

وقد ذهبت الديانة المسيحية الى فرض قيود وشروط على حدوث الطلاق، مما يعني أنها تشجع على إقامة الزواج والمحافظة على ديمومته واستمراره الذي يظهر واضحا في التشجيع على الإنجاب والزيادة في عدد الأولاد، بالتالي توسيع دائرة عدد السكان

2-3- الديانة الإسلامية والفكر السكاني

تختلف نظرة الحضارة الإسلامية في الفكر السكاني عن باقي الحضارات الأخرى في المسألة السكانية، حيث ترجع هذه المسألة إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، والتي تنص على أن حياة الإنسان بيد خالقه سبحانه تعالى، ومسار حياته مقدر عليه حتى من قبل أن يوجد (الإيمان بالقضاء والقدر خيره و شره...)، في هذا المنحى يمكن أن نعتمد على بعض الآيات من السور القرآنية والتي تذهب في هذا الاتجاه بصراحة، ولكنها ضمنيا تشجع على الزواج والإنجاب: يقول الحق سبحانه تعالى في **سورة هود** الآية 10 "**وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها**" ويقول كذلك في **سورة الذاريات** الآية 22 "**وفي السماء**

40- مقتطف من محاضرات الأستاذ القنبعي الفصل الرابع وحدة الديموغرافيا نظام LMD .الأسرار السبعة المقدسة هي مجموعة من الطقوس الغاية منها وبحسب الاعتقاد المسيحي هي "نوال نعمة سرية (غير منظورة) بواسطة مادة منظورة، وذلك بحسب الاعتقاد المسيحي بفعل روح الله القدوس الذي حل بمواهبه في يوم الخمسين على تلاميذ ورسل المسيح، وبحسب ما أسسه المسيح نفسه وسلّمه للرسل وهم بدورهم سلّموه للكهنة بوضع اليد الرسولية. (كورنثوس الأولى 23:11). ويكيبديا

رزقكم وما توعدون"، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :"لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا" وحديث آخر لخاتم الأنبياء والرسل (صلى الله عليه وسلم) يقول "تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة".

يدعو هذا الحديث النبوي الشريف الأخير بكل صراحة ووضوح الى الزواج ويشجع على الإكثار في الإنجاب، وذلك بجعل الحضارة الإسلامية حضارة قوية برجالاتها الكثيرين.

ومن المؤرخين الذين طبعوا الحضارة الإسلامية في مجال السكان، نجد أبرزهم العلامة "**عبد الرحمان ابن خلدون**" الذي يعتبر من مفكري المسلمين الذين اهتموا بالمسألة السكانية، والذي كانت لديه فكرة واضحة وصريحة عن قوانين تزايد السكان قبل أن يظهر "**توماس مالتوس**" أي قبل 400 سنة، إلا أن ما يأخذ عليه **(ابن خلدون)** هو عدم إخضاع هذه الفكرة إلى التمحيص العلمي.

المحاضرة االحادية عشر والثانية عشر:

3- العصور الوسطى والفكر السكاني[62]

يتميز فكر العصور الوسطى بالتأثير الشديد بمبادئ المسيحية، الذي أدى ببعض مفكريه معارضة الإجهاض، ووأد الأطفال، والطلاق، والزواج التعددي، بمعنى أنهم كانوا يقرون بتعاليم الإنجيل التي كانت تحث على الزيادة في الإنجاب.

وقد تميز كذلك فكر العصور الوسطى بكتابات كل من المؤرخ العربي "**عبد الرحمان بن خلدون**" (1332م-1406م) والعالم الإيطالي "**جيوفاني بترو**" (1543م-1617م).

3-1- إسهامات الفكر الخلدوني

تعتبر أعمال "**ابن خلدون**" في مجال السكان، من المحاولات أو البدايات الأولى للتقعيد النظري لعلم السكان أو الديموغرافيا، لأنه يماثل بين سيرورة تطور المجتمع وسيرورة تطور الإنسان، فكلاهما يمران بنفس المراحل، مرحلة الولادة/الخلق* ثم مرحلة الشباب/القوة والتوسع، فمرحلة الشيخوخة/التدهور والضعف، ثم مرحلة الموت/الزوال أو الانقسام، ويربط "**ابن خلدون**" بين ارتفاع الزيادة في الزواج والإنجاب بآمال وطموحات السكان، وبين تدني وانخفاض معدل الولادات وتحديد النسل، بانخفاض مستوى الطموح وانعدام آمال وأمن السكان، ويزيد قائلا "**ابن خلدون**" أن الزيادة في عدد السكان بصفة عامة، تكون في المراحل الأولى من سيرورة تطور المجتمع والعكس صحيح[63].

41-. زهرة صالح عبد المهدية، مرجع سابق ص 87.

* القبيلة ثم الإمارة فالدولة، فالإمبراطورية فالتدهور والضعف.

[63] -. زهرة صالح عبد المهدية، مرجع سابق، ص 89.

وعليه، يعتبر **"ابن خلدون"** من بين فلاسفة المسلمين الرواد في هذا المجال، أي في الدراسات السكانية، حيث كانت له فكرة واضحة عن قوانين تزايد السكان قبل أن يظهر **"مالتوس"** Malthus بأكثر من أربعة قرون، لقد طالب **"ابن خلدون"** علماء الاجتماع بتمحيص كل ما يسمعونه من الأخبار أو وقائع اجتماعية باستخدام القوانين الاجتماعية، وضرب مثلا على ذلك مما نقله **"المسعودي"** وكثير من المؤرخين عن جيوش بني إسرائيل وأن نبي/كليم الله **"موسى"** عليه السلام أحصاهم في **"التيه"**[64]، بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح، خاصة من يصل عمره عشرون ربيعا فما فوق. فكانوا 600.000 ن. وعند تقدم علوم الطبيعة بفضل مجهودات **"فرنسيس بيكون"** في أوائل القرن 17 **و"إيزاك نيوتن"** في الأواخر منه. وظهور حكام وملوك يتقنون الأساليب الإدارية العلمية فعملوا على تنظيم البلاد داخليا، بالاعتماد على الأرقام وتنظيم الجيوش أمثال **" لويس الرابع عشر" (LOUIS 14)** ملك فرنسا و**"بطرس الأكبر"** ملك روسيا، في حين ظهر في انجلترا علم جديد للسكان لكنه كان يعرف باسم أخر وهو **"علم الحساب السياسي"**، ويدور موضوعه حول **"الحساب الاجتماعي"** أي الوقوف على حالة السكان من الولادات والوفيات في مختلف الدول وهجراتهم كذلك من دولة لأخرى. ومبلغ دخل الأفراد من ثرواتهم ومقدار ما ينتجون وأنواع إنتاجهم. والمدن التي ترتفع فيها معدلات هذا الإنتاج، ومقدار الضرائب المفروضة على الثروات... إلخ، بهدف الاضطلاع على مستويات الحياة الاجتماعية للسكان.

إلا أن **"ابن خلدون"** يرفض قطعا الأخذ بهذا الرقم لتعارضه مع قوانين تزايد السكان في المجتمع، على اعتبار أن ما بين سيدنا **"موسى"** وسيدنا **"يعقوب"** (إسرائيل) هو أربعة آباء استنادا إلى طبقة الرواة الثقاب من/بين المؤرخين فهو: **موسى بن عمران بن**

---

*يحيل الفكر الميركنتيلي على المدرسة الميركنتيلية أي التجارية التي ظهرت في القرن الخامس عشر الميلادي، و من أهم روادها: - **"أنتوان ذو مونت كريستان" – "لويس اورتيز" – "ريتشالد كونتيليا" و"جون بودان"**، والفكر التجاري كان يشجع على التزايد السكاني عن طريق الإنجاب لأنه كان يؤمن بأن التزايد السكاني عامل أساسي و ضروري في التنمية الاقتصادية

64 – يطلق التيه على المدة التي قضاها بنو إسرائيل ضاربين في صحراء سيناء والمناطق المجاورة لها: متنقلين في أرجائها "تائهين" حسب تعبير القرآن الكريم في قيافيها وقفارها وتبلغ هذه المدة طبقا لنص القرآن الكريم 40 سنة، تبدأ بخروج بني إسرائيل من مصر وتنتهي بتسللهم إلى مساحة صغيرة من بلاد كتعان، وفي هذا يقول تعالى في كتابه الكريم بعد تصوير للحوار الذي دار بين موسى وقومه إذ يستحتهم على دخول الأرض المقدسة وهم يتقاعسون عنها خوفا من أهلها(آيات 20–25) من سورة المائدة. "قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض" آية 26 سورة المائدة

يصهر بن قاهت لاوى بن يعقوب وهو إسرائيل الله (هكذا نسبته في الثوراة) والمدة بين الجد وابن حفيد الحفيد طبقا لما نقله **"المسعودي"** حوالي 220 سنة، حيث دخل نبي الله سيدنا **"يعقوب"** مصر مع أولاده "الأسباط" وأولادهم حين أتوا إلى نبي الله سيدنا **"يوسف"** وكانوا 70 ن.

2-3- إسهامات الفكر الميركنتيلي/التجاري

يعتبر الفكر الميركنتيلي* فكرا اقتصاديا بامتياز، حيث كان يؤمن بعلاقة سببية بين الزيادة في عدد السكان وبين النمو الاقتصادي للدولة، الأمر الذي دفع الميركنتيليون خاصة في أوج سيطرة مذهبهم التجاري خلال القرنين السابع عشر الميلادي والثامن عشر الميلادي (17م و18م)، إلى تبني مقولة قياس قوة وعظمة الدولة بما تملكه من معادن نفيسة، التي من خلالها تعمل على حيازة قوة بشرية توظفها من جهة، في إيجاد قوة عسكرية للدفاع والحماية والتوسع، ومن جهة أخرى، في خلق قوة عاملة تكون سببا في إغناء الدولة.

على هذا الأساس ظهرت في الساحة الأوروبية عدة قوانين تشجع بطريقة من الطرق على الزيادة في عدد السكان عن الطريق الزواج مثل:

- قانون الحد من حرية العزاب[65] في بريطانيا.
- إعفاء المتزوجين من الإدلاء بتصريح العزاب.
- إعفاء المتزوجون من الضرائب.

---

*- **المركنتيلية** "نزعة للمتاجرة من غير اهتمام بأي شيء آخر"، وهي مذهب سياسي-اقتصادي ساد في أوروبا فيما بين بداية القرن السادس عشر ومنتصف القرن الثامن عشر، كانت الإتجارية شائعة كشيوع الرأسمالية في هذا العصر، وبحين تفترض النظريات الإقتصادية الحالية بأن الأسواق تنمو باستمرار، ترى الإتجارية (يعني الميركنتيلية) بأن الأسواق ثابتة، مما يعني بأن لزيادة حصتك في السوق، ينبغي أن تأخذ هذه الحصة من حصة شخص آخر.

ونشأ النظام المركنتلي التجاري في أوروبا خلال تقسيم الإقطاعيات لتعزيز ثروة الدولة وزيادة ملكيتها من المعدنين الذهب والفضة عن طريق التنظيم الحكومي الصادر لكامل الاقتصاد الوطني وانتهاء في سياسات تهدف إلى تطوير الزراعة والصناعة وإنشاء الاحتكارات التجارية الخارجية.

يرى المركنتليون (التجاريون) أن مقدار قوة الدولة إنما يقاس بما لديها من ذهب ومعادن نفيسة وليس في قدرتها على إنتاج السلع والخدمات كما هو المقياس الحديث .**ويكيبديا**

44 – نفس المرجع ص 90.

- إقرار العديد من الوظائف للمتزوجين في ألمانيا.
- تحويل ملكية الأعزب المتوفى إلى الدولة.
- إعفاء كل متزوج قبل 20 سنة إلى 25 سنة من الضريبة، "**قانون كولبير**" سنة 1666م.
- إعفاء كلي من الضرائب، كل من له (10) عشرة أطفال شرعيين أحياء، بشرط ألا يكونوا قساوسة[66].

كما ظهرت قوانين أخرى في دول أخرى بجعل الزواج إجباريا ك.

- قانون الزواج الإجباري قبل سن 25 سنة **(قانون بروسي)**.
- قانون منح المتزوجين مساعدات.
- قانون إنشاء دور للأمومة وللقطاء.
- إلغاء العقوبات الكنسية التي كانت تقع على النساء غير المتزوجات **(قانون فردريك الأكبر)**.
- فرض عقوبات شديدة لكل من يتعرض لهن.

نستنتج من الفكر الميركنتيلي في مجال السكان إلى أن تنامي عدد السكان يؤدي حتما إلى زيادة القوة العاملة وهذه الأخيرة تؤدي الى تحقيق أهداف اقتصادية وعسكرية للدولة.

3-3- إسهامات الفكر الطبيعي/الفيزيوقراطي

يمكن القول على أن ظهور المدرسة الطبيعية/الفيزيوقراطية قام على أنقاض المدرسة التجارية، بمعنى أنه تجاوز الاهتمام بقوة الدولة الى الخضوع والعمل بالقوانين الطبيعية، إضافة الى اعتبار كذلك الفلاحة مصدرا قويا من مصادر الثروة للدولة، الأمر الذي جعل

[66] – زهرة صالح عبد المهدية، مرجع سابق، ص 90.

الطبيعيون يحولون الاهتمام بقوة الدولة الذي كان سائدا خلال فترات ومراحل الميركنتيلية/التجارية الى الاهتمام بالشعب[67]، أي بالسكان.

منذ النصف الثاني من القرن 18م، ظهر الفيزيوقراطيون (أو الطبيعيون)* بفكر ينظر إلى الدينامية السكانية بطريقة قدرية ونفعية، فمن حيث أنها قدرية، لأنهم كانوا يعتقدون في العديد من المجالات التي تخص استمرار الإنسان وبقائه مثل (التجارة والزراعة الإنجاب....)[68]، أي أنها تخص الله سبحانه وتعالى وحده، وليس لأحد كيفما كان أن يتدخل في تغيير مسارها أو اعتراض سبيلها، لأن قدرة الإنسان نفسه خاضعة لقدرة وعناية الله.

ومن أبرز مفكري الفيريوقراطين/الطبيعيين، نجد المفكر "**كيناي**" (1694م-1774م)* (Quesnay François) الذي حاول أن يخلص إلى معامل الارتباط من خلال جداول إحصائية لسكان فرنسا منجزة بين سنة 1650م وسنة 1850م، والذي يؤكد (أي معامل الارتباط) على أن انخفاض الإنتاج ناتج عن انخفاض عدد السكان الفرنسيين[69]، أضف إلى ذلك أنه ذهب إلى أبعد من ذلك في دراسة ديموغرافية اقتصادية توصل فيها، إلى أن الدولة التي ينخفض حجم سكانها بمقدار الثلث(3/1)، ينخفض إنتاجها بمقدار الثلثين (3/2)، وكانت نتيجة هذه الدراسة هي التي دفعته إلى أن الزيادة في الدخل يجب أن تكون قبل

---

[67] - حسن الساعاتي، عبد الحميد لطفي، دراسات في السكان، دار المعارف، مصر، ط 2، ص 28.

*ظهرت المدرسة الطبيعية/الفيزيوقراطية في القرن السادس عشر الميلادي في فرنسا، ومن أهم روادها: - "**فرنسوا كيناي**" - "**فيكتور ميغابو**"، تميزت هذه المدرسة بفكرتها الفطرية بالنسبة للسكان، وتظهر هذه الفكرة جليا في مقولة فيكتور ميغابو التي تقول "لا حدود للنسل سوى القوت".

*- مذهب من مذاهب الاقتصاد في القرن 18م

47- نفس المرجع ص 40.

* - François Quesnay, né le 4 juin 1694 et mort le 16 décembre 1774 à Versailles, est un médecin et économiste français, penseur du roi Louis XV et l'un des fondateurs de la première école en économie, l'école des Physiocrates. Il est l'auteur du *Tableau économique* (1758), qui est la première représentation schématique de l'économie.

[69] - نفسه ص 41.

الزيادة في السكان، لأن ثروة الدول تقوم على حجم سكانها، بل على العكس من ذلك تقوم على حجم إنتاجها[70].

ومقارنة بالجوع والأوبئة[71]، يقول أحد المفكرين ويدعي "**Wrigley**" وهو أستاذ بجامعة "**كمبردج**"، أن معدل الخصوبة في حالة الجوع يكون أقل انخفاضا في حالة انتشار الأوبئة.

كما نجد المفكر "**سوسميلش**" ***Sussmilch** ، رغم منصبه العسكري في جيش الملك "**فردريك الأكبر**" كان واعضا دينيا له مؤلف بعنوان "**الإحصاء الديموغرافي**" يركز فيه على المعادلة الحسابية الطبيعية بين بني الإنسان في الزواج والإنجاب والوفاة ، بمعنى أن هناك معادلة بالمناصفة بين الولادات والوفيات في الكون، وهذا راجع إلى القدرة الإلهية التي لا يمكن أن يقف أمامها أي إنسان أو يغيرها لأهداف معينة (كما سبقت الإشارة الى ذلك)، ويضيف على أنه حتى في حالة اختلال توازن المعادلة الطبيعية الحسابية أي انخفاض عدد السكان، فإن القدرة الإلهية تعيد الأمور إلى مكانتها الطبيعية بعد زوال الأزمة.

الملاحظة أن كل أفكاره كان يصوغها من مرجعيته الدينية المطلقة.

في نفس السياق نجد الفيلسوف والمفكر والسياسي الفرنسي "**كوندرسيه**"[72]، ينطلق في دراسته للسكان بصفة عامة من فكرة التطور الإنساني على المستوى العمودي، وقد عمل

---

[70] – نفسه ص 40. نقلا عن عبد العزيز مزت، في الإحصاء، القاهرة، ط 4، ص 59.

[71]– نفس المرجع ص 41. نقلا عن، **Wigley. E. A**: Population and Hystory. New York. MC GRAW Hill 1969

* – **Johann Peter Sussmilch** pasteur et démographe Allemand, Mathématicien et statisticien. il a été) le premier à tenter de traiter systématiquement la question du taux de masculinité, et il introduit à ce sujet le constat que « pour 1000 fillettes nées il vient 1050 garçons » une formule promise au succès parmi les démographies malgré ses problèmes évidents (WIKIPIDIA).

[72] – **Nicolas Condorcet** (1743–1794) : Philosophie, mathématicien et homme politique français, il est célèbre pour ses travaux pionniers sur la statistique et les probabilités » (WIKIPIDYA).

على شرحها وتفسيرها بشكل جيد وعرضها ضمن نظريتها في فلسفة التاريخ[73]، وعليه يصور لنا عملية التطور الإنساني العمودي، على أنها سيرورة مستمرة تتجه نحوى الأعلى وتتوزع على مراحل من المرحلة الأولى الى المرحلة التاسعة، كمراحل تؤرخ للتطور الإنساني عبر الزمان التاريخي الفيزيائي، أي من الماضي إلى حدود القرن 16م تبدأ المرحلة التاسعة التي تعرف بداية العصر الحديث وولادة العديد من العلوم والانتقال من العقلانية الدينية إلى العقلانية العلمية، وسيادة تعاليم عصر الأنوار، واستعمال العقل في كل المسائل المتعلقة بالإنسان، بمعنى التخلي عن الدين في تأطير التعامل البين شخصي في المجتمعات، إضافة إلى هذا ظهور تيارات فكرية وفلسفية تروم إلى الشرعية العلمية خاصة مع العقلانيون (**"ديكارت"**، "**سبينوزا**"، "**لايبنتز**") والتجريبيون (**"جون لوك"**، "**دفيد هيوم**."..) والتيار النقدي (**"كانط"**)، أما المرحلة العاشرة والتي يؤكد فيها على أن الإنسان سيصل فيها إلى الآمال المنشودة عن طريق التقدم في ثلاثة أبعاد[74] وهي:

- بعد قيام المساواة بين الأمم.
- بعد مبدأ المساواة داخل كل أمة بين الجنسين.
- بعد ارتقاء الإنسان في ذاته كجنس عام[75].

في نفس السياق التفاؤلي أي تحليل الظاهرة السكانية الديموغرافية نجد المفكر الإنجليزي "**جودوين**"[76] الذي أرجع كل الشرور والمشاكل التي تعرفها الحياة الاجتماعية، أي تلك التي تحددها قيم المجتمع، إلى النظم الاجتماعية التي أوجدها الإنسان لتسهر على تنظيم الحياة الاجتماعية للإنسان من داخل المجتمع.

---

[73] – نفس المرجع ص 42.

[74] – نفس المرجع ص 112.

[75] – د. زيدان عبد الباقي، التفكير الاجتماعي، مرجع سابق، ص 139.

[76] – William Godwin (1756–1836) Philosophe, théoricien, économiste, politique et romancier britannique (écrivain) (WIKIPIDIA).

إلا أنه كان دائم التفاؤل بمستقبل الإنسان، حيث زاد تفاؤله إلى الإيمان بأن الإنسان سيصل في مرحلة من مراحل تطوره في الأرض إلى الكمال المنشود. لأن بني الإنسان يتوفرون على قدرات فطرية غريزية يمكن أن تستغل في كل المسارات المحمودة عن طريق التربية والتنشئة الاجتماعية، لاسيما في مجال تحقيق الخير والعدل للناس وبين الناس، وفي هذه المرحلة بالذات تسود رفاهية المجتمع الذي لا توجد فيه الظواهر الاجتماعية السلبية سواء تلك التي تحددها قيم المجتمع أو تلك التي تحددها فلسفته المجتمعية.

يتلخص الفكر الفيزيوقراطي/الطبيعي في وجود علاقة سببية بين حجم السكان وكمية الموارد الغذائية (الطعام)، بمعنى أن الأرض هي مصدر الثروة.*

المحاضرة الثالثة عشر والرابعة عشر:

ثالثا: الديموغرافيا والعلوم الاجتماعية

تعتبر الظاهرة الديموغرافية ملتقى العلوم الاجتماعية، على اعتبار أن الإنسان هو أساس هذه الظاهرة، وبالتالي فالظاهرة السكانية تشكل جزءا من المجتمع، بمعنى أنها جزء من دراسة المجتمع[77]، حيث لا يمكن إطلاقا التوصل إلى فهم العمليات الاجتماعية أو نظم الحياة الاجتماعية أو حتى الفلسفة المجتمعية، دون ربطها بالظاهرة الديموغرافية مع إخضاعها – بطبيعة الحال – للقياسات الإحصائية والمعدلات الرياضية.

وعلى هذا الأساس، يمكن أن نقول على أن الظاهرة الديموغرافية تتجاذبها مناهج العلوم الاجتماعية، مما يعطيها طابع الاختلاف من علم إلى آخر، أي أن الظاهرة السكانية، تختلف اختلافا واضحا من "علم الاجتماع" إلى "الأنتروبولوجيا" الى "علم الاقتصاد" إلى "الجغرافيا" إلى "التاريخ" الى "البيولوجيا" الى لآخره ... وعليه سنحاول في هذا المنحنى أن نبين هذا الاختلاف، بوضع علاقة "الديموغرافيا" بالعلوم الاجتماعية الأخرى تحت مجهر التحليل المخبري لكل صنف من أصناف هذه العلوم.

1- الديموغرافيا والسوسيولوجيا

تتجلى طبيعة العلاقة الموجودة بين "الديموغرافيا" و"السوسيولوجيا" في القواسم المشتركة من حيث الدراسة والبحث ، فالقاسم المشترك الأساسي الذي تقوم عليه هذه العلاقة منذ تطور الفكر الاجتماعي البشري جراء الوقائع الطبيعية والأحداث التاريخية، تتمثل في مشاكل الحياة الاجتماعية[78]، التي تفرزها العلاقة بين أفراد المجموعات المكونة للمجتمع، والتي تخضع في دراستها إلى وضع في الاعتبار المنظومة القيمة التي ترسم

---

[77]- نفس المرجع ، ص 21.

[78]- مشاكل الحياة الاجتماعية هي كل مشاكل المجتمع التي تحددها منظومة قيمه، نقلا عن تقسيم Scott Greer لطبيعة المشاكل، محاضرات د. **عبد الكريم القنبعي الإدريسي** المناهج الكيفية الفصل الثالث علم الاجتماع والإجازة المهنية شعبة الفرنسية،السياحة، التواصل والتراث.

معالم الأخلاق لهذا المجتمع، وتحدد معايير ومقاييس سلوكياته طبقا لعاداته وتقاليده وأعرافه وطقوسه.

أضف الى ذلك أيضا قواسم عامة مشتركة بين الديموغرافيا والسوسيولوجيا، حيث ما تهتم به الديموغرافيا كخصائص وكمعايير تصنيفية تهتم به السوسيولوجيا، إضافة إلى ضرورة العمل الميداني، وتعتبر الديموغرافيا علما حديثا كالسوسيولوجيا، لأن كلاهما ظهرا في أواسط القرن التاسع عشر (19 م). ف "أوكيست كونت" **Auguste Comte** [79] لم يستبدل مصطلح الفيزياء الاجتماعية بمصطلح السوسيولوجيا إلا في الجزء الرابع من كتابه "دروس في الفلسفة الوضعية" وكان ذلك سنة 1839 م، أما مصطلح الديموغرافيا فقد ظهر أول مرة بمعناه الحديث في مؤلف **Achille Guillard** سنة 1855 م بعنوان: **"Eléments de statistique et de démographie comparée".**

وهذه النشأة المتقاربة في الزمن، تبين للوهلة الأولى مدى التداخل والترابط بين العلمين من جهة، وبين الديموغرافيا وباقي العلوم الإنسانية من جهة أخرى، فكل الفلسفات والحضارات منذ القديم إلى يومنا الحالي (كما سبقت الإشارة الى ذالك في الفصل الأول)، قد اهتمت بتوضيح وتعديل المعايير والقيم التي ينبغي أن تكون أساس العلاقات بين مختلف أفراد المجتمع، كما ذهب بعضها إلى تحديد عدد السكان الضروري في المدينة، لأن ذلك العدد شديد الارتباط بقوة ورفاهية الدولة أو المدينة.

[79] - Auguste Comte, né Isidore Marie Auguste François Xavier Comte le 19 janvier 1798 à Montpellier et mort le 5 septembre 1857 à Paris, est un philosophe français, fondateur du positivisme. Polytechnicien, son intérêt profond pour l'enseignement constitue le fil rouge de sa carrière.Wikipédia. **Influencé par:** Aristote, Bacon, Descartes, Condorcet, Saint-Simon, Bichat. **Enseignement :** Université de Montpellier, École Polytechnique

يمكن التأكيد على أن هناك شرطان أساسيان ساعدا في نشوء الديموغرافيا والسوسيولوجيا وغيرهما من العلوم الإنسانية في القرن التاسع عشر (19 م).

الشرط الأول: يتجلى في تقدم وازدهار علم الديموغرافيا، ويفرض هذا في حد ذاته وجود حياة منظمة ومتطورة حتى يتسنى القيام بتعدادات سكانية مضبوطة ودقيقة، الشيء الذي تزامن مع ظهور نظام الحالة المدنية (Etat-civil)، بالإضافة إلى تقدم علم الرياضيات وحسابات الاحتمالات، مما ساعد كذلك على الدفع إلى الأمام بالتنبؤات المعتمدة على المعطيات الخاصة المجمعة بواسطة التعدادات السكانية والتي تعتبر أساس الديموغرافيا الحديثة.

الشرط الثاني: برز من خلال سيادة تعاليم فلسفات عصر الأنوار في القرن الثامن عشر (18م)، وكانت تسعى إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي من خلال نشر وعي مفاده، أن الإنسان يستطيع بفضل تأثيره على الطبيعة تغير وتحسين مستوى ونمط عيشه، وهذا يعني أن والوضعية الحالية للإنسان، ليست في نهاية الأمر سوى نتيجة لإرادة جماعية لأعضاء المجتمع.

خلاصة القول أن السوسيولوجيا والديموغرافيا قامتا على تطلعين إنسانيين محضين:

الأول: هو الرغبة في فهم ومعرفة أحسن وأعمق للظواهر الإنسانية.

الثاني: هو وعي الإنسان بإمكانية تأثيره على المجتمع وتغييره.

إن طبيعة المشاكل الاجتماعية التي تؤسس للظواهر الاجتماعية، هي مترابطة بشكل مباشر، أو بشكل غير مباشر بالظواهر الديموغرافية، فمثلا دراسة "ظاهرة الباعة المتجولين" أو "ظاهرة الباعة أصحاب العربات" أو "ظاهرة الفراشة"، تقتضي دراسة الهجرة من القرية إلى المدينة كظاهرة اجتماعية وكظاهرة ديموغرافية، وذلك للجمع بين العديد من المتغيرات من كلا المجالين للنجاح أخيرا في الوصول إلى تأويل وفهم الأسباب الصريحة

والضمنية وراء إنتاج وإعادة إنتاج الظاهرة، ولتفسير متغيرات التكيف مع المحيط الجديد والأسباب الرئيسية لهذه الظاهرة ومدى ارتباطها بالظواهر الأخرى، سواء التي تتولد عنها أو التي تطعم وتدعم وجودها وانتشارها في المجتمع (مثل ظاهرة الفراشة في الشارع العام).

فالعلاقة موجودة بين "الديموغرافيا" و"السوسيولوجيا"، وهي علاقة وطيدة وقديمة كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ويرجع ذلك بالأساس إلى التناول المزدوج، سواء للنظريات الاجتماعية بمعية النظريات الديموغرافية أو إلى المزاوجة بين مناهج العلمين، للوقوف على المبتغى من دراسة الظاهرة قيد الدراسة، فالتمييز حاصل بين "الديموغرافيا" و"السوسيولوجيا" العلاقة قائمة بينهما ولا يمكن إنكارها أو تفاديها، إذن هما وجهان لعملة واحدة، تصب في قناة موحدة تجمع بين الموضوع والنظرية في تفسير علاقة الفاعل بالفاعل من جهة، وبالفاعل بالمجتمع[80] من جهة أخرى في الآن وهنا.

في سياق ما قيل، أو بالأخرى الرجوع إلى الكتابات التي تؤرخ للعلاقة بين "الديموغرافيا" و"السوسيولوجيا" من حيث النظرية السوسيولوجية في تعاطيها مع السكان، أو في دراستها للسكان من خلال متغيرات ديموغرافية سكانية، سنجد أنفسنا أمام إشكال مفاده:

- **إلى أي حد استفاد مجال "علم السكان" من "السوسيولوجيا" في خلق نظريات خاصة به وقواعد وضوابط وقوانين تزكي علميته كعلم مستقل؟.**

في هذا الصدد يقول الدكتور "إسماعيل حسن عبد الباري" في كتابه "الديموغرافيا الاجتماعية""[81]:

---

[80]- نفس المصدر، ص 23.

[81]- د **"اسماعيل حسن عبد الباري"**، الديموغرافيا الاجتماعية، دار المعارف، القاهرة، 1983، ص 41.

[إن نظرية علم الاجتماع قد أخذت شرطا كبيرا من التطور والدراسة، بحيث يمكن القول بأنه قد توفر لدينا إطار نظري ثري في مجال العلم، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هو:

- **هل انبثقت من هذه النظرية الاجتماعية محاولات جادة لوضع إطار نظري يعتمد/يعول عليه في دراسة السكان؟.**

حقيقة الأمر، أن هناك جهودا كبيرة ودراسات مستفيضة في المجال الديموغرافي، ومع ذلك تفتقر هذه الجهود إلى إطار مرجعي يجمع شتات هذه الجهود الإمبريقية، فضلا عن النظرية في إطار نظرية ديموغرافية اجتماعية، بسبب أن هذه الجهود تستند إلى معايير مختلفة عند تصنيفها (أي الجهود)، ولكن على أية حال، فقد برزت مجالات ثلاث تحاول وضع إطار نظري في المجال السكاني، فهناك محاولات لوضع نظرية سكانية وفقا للمعيار الطبيعي، بينها هناك محاولات أخرى لوضع إطار نظري وفقا للمعيار الثقافي والاجتماعي، في حين أن بعض المفكرين حاولوا تصنيف نظريات السكان على أساس إيديولوجي، وبالتالي هناك نظريات محافظة وأخرى راديكالية[82]".]. انتهى كلام المؤلف.

انطلاقا من سياق هذا الخطاب نستحضر نظرية "مايكل توماس سادلر"[83] (1780م – 1835م) Michael Thomas Sadler "*"، التي تعتبر من نظريات القانون الطبيعي إلى جانب نظرية "توماس دبلداي[84] Thomas Doubleday"*

---

[82]- نفس المرجع ص 42. نقلا عن د **"علي جبلي"** ، علم اجتماع السكان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1982، ص 39.

[83] مرجع سابق، ص 43. **اسماعيل حسن،**

*- **Michael Thomas Sadler** (3 janvier 1780 - 29 juillet 1835) était un député britannique conservateur dont l' anglicanisme évangélique et son expérience antérieure d'administrateur de Law Law à Leeds l' ont amené à s'opposer aux théories malthusiennes de la population et à leur utilisation pour décrier les dispositions de l'État. pour les pauvres. WIKIPEDIA

[84]- **اسماعيل حسن**، مرجع سابق، ص 43.

*- **Thomas Doubleday** est né à Newcastle-on-Tyne février 1790 - 18 décembre 1870) était un homme politique anglais et un auteur. Au début de sa vie, il a adopté les vues de William Cobbett et a activement contribué à l'agitation qui a abouti à l'adoption du projet de loi sur la réforme de 1832. En tant que secrétaire de l' Union politique du nord des Whigs et des radicaux, il a joué un

(1790م- 1870م)، إضافة إلى نظرية "هربرت سبنسرHerbert Spencer"* (1820م- 1903م).

"سادلر" والفكر الاجتماعي في السكان (1780م – 1835م)

انطلق "سادلر" من اعتقاد على أن القانون الطبيعي يتحكم في نمو السكان، وهذا يعني أنه كان يختلف مع "مالتوس" (رغم أنه عاصره) حول مبدأ ميل الأفراد إلى التكاثر والنمو، بمعنى أن التزايد يتناقص بمجرد ارتفاع حجم الازدحام في منطقة ما أو مجتمع ما[85]، وأن حجم السكان يتوقف عن الارتفاع حين يتمتع أفراد المجتمع بالرفاه والسعادة، أما "دبلداي" فكان يرى أن ارتفاع حجم السكان يرتبط بشكل عكسي بالموارد الطبيعية ، بمعنى أن رفاه المجتمع يبطئ من ارتفاع حجم السكان[86].

"سبنسر"* والفكر الاجتماعي في السكان (1820م- 1903م)

أما "سبنسر" فقد أرجع التطور الاجتماعي والبيولوجي إلى قوى طبيعية، بمعنى أن القانون الطبيعي ينفي مسؤولية ضبط الإنسان لعملية الزيادة أو النقصان التي يعرفها

---

rôle de premier plan dans la transmission des intérêts de Earl Grey et du parti réformateur. En 1858-1859, il fut membre du conseil de la Northern Reform Union ; et jusqu'à la fin, il observa attentivement les événements politiques. WIKIPEDIA.

*- **Herbert Spencer**, né le 27 avril 1820 à Derby et mort le 8 décembre 1903 à Londres, est un philosophe et sociologue anglais.

Issu d'une famille de radicaux il fut très tôt intéressé par les questions politiques. C'est pourquoi il s'affilia à de nombreuses associations. Il devint ainsi membre de l'*Anti-Corn Law League*, fondée par Richard Cobden. S'il se fit connaître comme sociologue, il exerça cependant la profession d'ingénieur des chemins de fer. WIKIPEDIA.

---

[85]- **اسماعيل حسن**، مرجع سابق، ص 43.

[86]- نفس المرجع ص 43.

المجتمع، ويقوم هو (أي قانون الطبيعي) بتحقيق معادلة التنمية الشخصية والعلمية الاقتصادية مقابل ضعف الاهتمام، والحاجة إلى زيادة حجم المجموعة البشرية[87].

"كورادو جيني" والفكر الاجتماعي في السكان (1884م-1965م)

غير أن المفكر الإيطالي "كورادو جيني Corrado Gini"* (1884م-1965م) كان يعتقد على أن تطور المجتمعات ينتج عن تغييرات في معدلات نحو السكان[88]، بمعنى أن العامل الأساسي وراء نمو السكان، هو العامل البيولوجي أكثر بكثير من التغير الاجتماعي والاقتصادي[89].

""هنري جورج"* والفكر الاجتماعي في السكان (1839م-1897م)

أصدر "هنري جورج"[90] (وهو أمريكي) مؤلفا تحت عنوان "التقدم والفقر" يشرح فيه آراءه الاجتماعية حول السكان، من حيث "متغير التقدم" و"متغير الفقر" وما لهما من ارتباط قوي بحجم السكان في رقعة جغرافية ما، وكان الكِتَابُ يعتمد على نموذج دول العالم الغربي[91].

ينطلق "هنري جورج" من مبدأ راسخ الاعتقاد في صيغة "فرضية الإثبات"، مؤداها وجود علاقة بين نزوع وميل الإنسان الطبيعي/الغريزي إلى التكاثر، وقدرته على ذلك،

87- نفس المرجع ص 44.

*** - Corrado Gini** (23 mai 1884 - 13 mars 1965) est un statisticien, démographe, ethnologue, sociologue et idéologue italien.

On lui doit le *coefficient de Gini*, une mesure de l'inégalité de revenu dans une société donnée. Gini a aussi contribué à l'idéologie fasciste en écrivant *Les bases scientifiques du fascisme* en 1927.

Dirigeant des études ethnologiques, il contribua durant la Shoah à sauver une population juive de Lituanie.

88- **اسماعيل حسن** ، مرجع، سابق ص 46.

89- نفس المرجع ص 46.

*- ولد **هنري جورج** في فيلادلفيا بنسلفانيا 1839/9/2 وتوفي في نيويورك 1897/10/29 على إثر نزيف في المخ ودفن في مقبرة غرين وود، ينتمي إلى الحزب الجمهوري الديموغرافي الأمريكي، يعتبر اقتصاديا وفيلسوفا وكاتبا وصحفيا ومحررا، نقلا عن وكيبيديا.

90- د."**إسماعيل حسن عبد الباري**"، الديموغرافيا الاجتماعية، دار المعارف القاهرة، 1983، ص 47.

91- نفس المرجع، ص 48.

(بمعنى أن الإنسان له ميل للتكاثر وله القدرة على ذلك)، والعلاقة بينهما قائمة وهي طبيعية وغريزية يولد الإنسان وهو مزود بهما)[92]، حيث نجده يعتمد على مفهوم عائد الأرض، أي يمكن أن يقول على أنه الأول الذي قال بالأجر الفريد، أي تلك العلاقة الموجودة بين "عدد السكان" و"مساحات الأراضي الزراعية"، بمعنى آخر كلما ارتفع عدد السكان كلما وجد من يشتغل في الأراضي الزراعية، وبالتالي يكون الإنتاج وفيرا والعكس صحيح[93]، وفي نفس السياق التفاعلي بين "عدد السكان" و"مساحات الأراضي" المدرة للموارد الطبيعية والزراعية تمكن "هنري جورج" من وضع قانون كعلاقة مستمرة وثابتة بين الوقائع مفاده:

[أنه إذا كان القانون الحقيقي للسكان يمكن أن يكون دلالة، فإن الاعتقاد في ميل الإنسان إلى الزيادة سوف يتفاعل مع معدلات الوفيات، فضلا عن أن مزيدا من السكان سوف يؤدي إلى مزيد من التسمية...][94]. ويبقى كل من "هربرت سبنير" و"هنري جورج" يتجاذبان مقولة: أن مبدأ الخصوبة يتأثر إيجابا وسلبا بالتنمية البشرية.

"أرسن ديمونت" والفكر الاجتماعي في السكان (1849م-1902م)*[95].

يعتبر Arsène Dumont من المنظرين الفرنسيين الذين كان لهم السبق في تقعيد دراسة النمو السكاني في فرنسا، انطلاقا من نظريته "النظرية الاجتماعية الرأسمالية""، وتقوم هذه النظرية على نقطتين أساسيتين وتتجلى النقطة الأولى في:

92- نفس المرجع، ص 47.
93- نفس المرجع، ص 47.
94- نفس المرجع، ص 48.
95- نفس المرجع، ص 48.

*- **Arsène Dumont** est un démographe français du XIXe siècle, notamment connu pour son concept de « capillarité sociale ». **Date et lieu de naissance :** 21 mars 1849, Calvados, France
Date et lieu de décès : 31 mai 1902, Paris, France
Livres : Dépopulation et civilisation: étude démographique. Wikipédia

- كون أن هناك حتمية طبيعية لدى الإنسان في التخطيط والتنظير والتنسيق والقيادة لعملية التقدم في المحيط الذي يعيش فيه.

أما النقطة الثانية فتظهر في:

- محاولات الإنسان اليومية لخلق مزيد من الرفاهية له ولأسرته وللمجتمع الذي ينتمي إليه[96]، مع مراعاة الملاءمة بين النظام الطبيعي و النظام الاجتماعي، اللذان يدفعان الإنسان الى العمل – بكل ما أوتي من جهد وعلم وقدرة وقوة – على إخضاع النظام الأول (النظام الطبيعي) إلى النظام الثاني (النظام الاجتماعي).

إن علاقة الإنسان بالطبيعة منذ أن وجد، وهي تتميز بالجذب تارة وبالطرد تارة أخرى، بمعنى أن الإنسان يحاول دائما أن يخضع الطبيعة إليه ويسيطر عليها، لأنها المصدر الوحيد لإشباع حاجاته، بدءا من الحاجات الأولى الأساسية الفيزيولوجية إلى الحاجات الخامسة المتمثلة في حاجات تحقيق الذات وتنميتها.

نستنتج أن نظرية "أرسن ديمونت" الاجتماعية في دراسة السكان، تختلف وتتعارض مع نظرية "هربرت سبنسر"، لأن "أرسن ديمونت" يؤمن بمبدأ الاختيار عند الإنسان في عملية الزيادة السكانية، غير "هربرت سبنسر" التي تقوم نظريته على أساس عضوي[97].

"ألكسندر كار سوندرز" والفكر الاجتماعي في السكان[98] (1886م-1966م)

96- **إسماعيل حسن عبد الباري**، مرجع سابق، ص 48.

97- نفس المرجع 48.

98- اسمه الكامل **"ألكسندر موريس كار سوندرز"** ولد عام 1886، هو اقتصادي إنجليزي ودارس للسكان، تعلم في جامعة لفربول، وعمل مديرا بمدرسة لندن الاقتصادية نقلا عن نفس المرجع، ص 49.

***- Alexander M. Carr- Saunders** est né le 14 janvier 1886 à Reigate , dans le Surrey , en Angleterre. Il a fait ses études au Eton College , une école publique réservée aux garçons située à Eton, dans le Berkshire . Il a ensuite étudié la biologie au Magdalen College , spécialisé enzoologie . Il est diplômé de l' Université d'Oxford avec un baccalauréat spécialisé en 1908.

انطلاقا من نظرية Alexander M. Carr- Saunders* التي تقوم على إرادة وقدرة الإنسان على حصر العدد الأمثل للسكان في المجتمع، وذلك من خلال الثقافة العامة للمجتمع، نجده يتعارض كلية مع القائلين بالقانون الطبيعي في معالجة وحل المشكلة السكانية.

تعارض آخر يبرز بينه وبين بعض المفكرين الاقتصاديين، حيث يرى أن الزيادة في عدد السكان تعتبر قوة اقتصادية، وأن الإنسان قادر على ضبط عملياته التناسلية المتكررة بالعديد من الآليات[99].

"كارل ماركس" والفكر الاجتماعي في السكان[100] (1818م-1883م)

تعتبر "نظرية كارل ماركس"* في السكان التي استخرجها من نظرية الشيوعية نظرية اجتماعية، على أساس أن الشيوعية في مجملها كنظرية، تساعد على إيجاد حلول ناجعة لظاهرتي الهشاشة والفقر اللتان تسميهما الزيادة المهولة في حجم السكان.

وقد أورد "ماركس" نظريته في السكان في مؤلفه "رأس المال"، الذي يحاول فيه التأكيد على أن الرأسمالية هي أساس الهشاشة والفقر والبؤس الناتج عنها، وبالتالي نستنتج أن هناك تعارض بين نظريته في السكان ونظريته "مالتوس"[101]، بمعنى أن

---

[99]- **إسماعيل حسن عبد الباري**، مرجع سابق، ص 51.

[100]- نفس المرجع ص 51.

*- تعرف نظريات "**كارل ماركس**" عن المجتمع في الاقتصاد والسياسة المعروفة باسم الماركسية، وتفترض أن كل المجتمعات تتقدم خلال الصراع بين الطبقات الاجتماعية: صراع بين طبقة الملاك المتحكمين بالإنتاج، وطبقة العمال الذين يعملون لإنتاج السلع، وقد عارض ماركس بشدة النمط الاقتصادي الاجتماعي السائد، أي الرأسمالية التي أسماها "**دكتاتورية البورجوازية**" التي كان يعتقد أنها مسيرة من قبل الطبقات الغنية لأجل مصلحتهم البحتة، وتوقيع بأن الرأسمالية كسابقاتها من النظم الاقتصادية والاجتماعية، ستولد من دون شك توترات داخلية تقودها إلى التدمير الذاتي واستبدالها بنظام جديد يسمى "**الاشتراكية**" ، رغم أن المجتمع تحت النظام الاشتراكي سوف يُحْكَمُ من قبل الطبقة العاملة، وهو ما أسماه "**دكتاتورية البروليتاريا**" أو "**دولة العمال**" أو "ديمقراطية العمال". إن "**كارل ماركس**" كان يعتقد أن الاشتراكية بدورها سوف تُستبدل بمجتمع بدون دولة وبدون طبقة وهو الشيوعية، بالإضافة إلى إيمانه بحتمية الاشتراكية والشيوعية. نشِط "**كارل ماركس**" بالمحاربة لتطبيق الاشتراكية، زاعما أن على العلماء النظريين الاجتماعيين والجماهير المعدمة تنفيذ عمل ثوري منظم للإضافة بالرأسمالية والقيام بتغيير اقتصادي اجتماعي". وكيبديا

[101]- ترى نظرية ماركس أن الإنسان قادر على خلق ظروف التقدم ومعالجة مشكلاته المختلفة في ضوء فلسفة الشيوعية ولذلك جاءت كتابات " ماركس" مخالفة بشكل قاطع لآراء مالتوس في السكان نقلا عن نفس المرجع ص 51.

الإنسان في القانون الشرعي، له القدرة على مضاعفة حجم الموارد الإنتاجية عن طريق تشغيل كل الأفراد في المجتمع[102] (أي القادرين على العمل)، وتقسيم فائض القيمة بطريقة عادلة، الأمر الذي يمكنهم من تجاوز العيش في الشقاء والبؤس من جراء زيادة حجم السكان مقابل حجم الموارد الإنتاجية، أي الابتعاد عن الرأسمالية التي تعمل على توزيع فائض القيمة بطريقة غير عادلة، مما يوسع من دائرة الإحساس بالبؤس والشقاء والعيش فيه[103].

2- الديموغرافيا وعلم الإحصاء

تتجلى علاقة "الديموغرافيا" بعلم "الإحصاء" في اعتماد المعادلات الإحصائية في شكل الأرقام رياضية، توفر للباحث أو الدارس للظاهرة الديموغرافية سهولة وبساطة الانتقال من الكيفي إلى الكمي في تبني أسلوب الإحصاء الوصفي، خاصة على أنه أسهل الأساليب الإحصائية[104] تداولا واستعمالا لفهم الظاهرة الديموغرافية، بعد تفكيك المسائل السكانية المكونة لها، وتطور "الديموغرافيا" أو "علم السكان" هو رهين بتطور علم "الإحصاء" لما يقدمه هذا الأخير من معلومات ومعطيات وبيانات على تطور وتقدم على السكان من جهة، وفي جعل مفكري العديد من العلوم والمسؤولين عن التهيئة المدنية من تبني نظرة مستقبلية لما سيكون عليه المجتمع/المدينة مستقبلا، وكذا رسم استراتيجيات الإعمار حسب التوزيع المجالي وتهيئة المدن وانتقال المدن الصغيرة إلى مدن متوسطة الى كبيرة من جهة ثانية .

3- الديموغرافيا وعلم الاقتصاد

102- **إسماعيل حسن عبد الباري**، مرجع سابق، ص 51.

103- نفس المرجع، ص 51.

104- نفس المرجع، ص 23.

إن أغلب أسباب الظاهرة الديموغرافية في شموليتها يكون اقتصاديا، فظاهرة هجرة السكان أو انتقالهم من مكان إلى مكان آخر، يكون غالبا بدافع اقتصادي، أو بدافع التوزيع السكاني في مجال دون مجال آخر مع اختلاف في نسب الكثافة، كذلك يمكن مرده الى متغيرات اقتصادية ينتج عنها ظواهر اجتماعية في المجتمع مثال، (متغير اقتصادي يؤثر في تنامي ظاهرة العزوف عن الزواج، التي بدورها تتولد عنها ظاهرة العنوسة، وهكذا يبقى المجتمع حبيس دائرة مغلقة تتأثر بالمحيط الخارجي، لتؤثر هي بدورها في نسقها الداخلي).

إن قياس هذه الظواهر بقياس إحصائي، يؤدي بنا إلى الوقوف على السبب الأساسي وإظهار الدافع الرئيسي وراء علاقة "الديموغرافيا" ب"الاقتصاد" ألا وهو النسيج الاقتصادي الذي يميز اليومي المعيشي للأفراد داخل المجتمع، ويطبع القدرة الشرائية ودخل الفرد من منطقة إلى أخرى داخل المجتمع الواحد وحسب المجتمعات ككل.

إن رسم سياسات تنموية للنهوض باقتصاديات الفئات الاجتماعية لساكنة مناطق المجتمع يتطلب دراسات ديموغرافية دقيقة إلى حد ما، تكتسي مشروعية علمية وبناء على معطيات وبيانات مستمدة من واقع هذه الفئات الاجتماعية، بهدف جعل إستراتيجية التنمية الاقتصادية خاضعة للقياس في مرحلة التقييم وعرض النتائج، للوقوف على النسب المائوية في تقدم التنمية الاقتصادية عبر تنزيل المشاريع التنموية للفئات المستهدفة.

ويعتبر "مالتوس" من أبرز المفكرين الذين ربطوا بين السكان – من حيث حجمهم – والاقتصاد، مما أفدى الأمر إلى اعتبار أن الزيادة في عدد السكان والتي لا تتوافق مع إنتاج الموارد الطبيعية والزراعية يؤدي إلى البؤس والفقر.

4- الديموغرافيا وعلم السياسة

يؤرخ المفكرون للعلاقة الموجودة بين "الديموغرافيا"/علم السكان و"علم السياسة" منذ الإرهاصات الأولى لوجود ظاهرة الحاكم والمحكوم، أي بدأ من وجود من يدبر شؤون القبيلة أو الإمارة أو الدولة، وكانت هذه العلاقة تظهر في التعدادات السكانية، التي كان يطغى عليها الطابع التخميني، والتي كانت تهدف في الأساس إلى معرفة الأشخاص القادرين على حمل السلاح أيام الحروب أو الغزوات أو الدفاع عن القبيلة من جهة، من ناحية أخرى معرفة وتعداد القادرين على دفع الضرائب،[105] وبالتالي كانت عملية تعداد السكان مرتبطة أشد الارتباط بسياسة الحاكم، وفي طريقة معالجة القضايا العالقة بالسكان وشؤونهم العامة والخاصة على حد سواء.

وقد بدأت تتطور هذه العلاقة حتى خرجت عن طابعها التخميني إلى منظورها العلمي، المرتبط بتدبير شؤون الدولة في عموميته، خاصة مع ظهور مفاهيم جديدة في مجال الإصلاح الجبائي، والانتقال الديموغرافي، وسياسات التوفيق بين حجم السكان وحجم الموارد الطبيعية، ومجالات الزراعية وحجم الاستثمارات، وذلك من خلال سن استراتيجيات تنموية واقتصادية كرافعة للتصدي لظاهرة الإقصاء والتهميش والهشاشة والفقر.

إنه ارتباط تاريخي[106]، يمكن أن نستنتج أنه تقوى خاصة مع بداية القرن 20. خاصة مع ظهور ذلك التداخل الحاصل بين بعض العلوم، من خلال الممرات والتقاطعات البحثية الأكاديمية، الأمر الذي جعل مجال السياسة والديموغرافيا يشتغلان على الإنسان في إيجاد طرق وآليات عملية للانتقال من التقليد إلى التحديث، مما جعل رسم حدود ومعالم سياسة "استراتيجيات اقتصادية"، تعتمد في عمقها على التخطيط والتنظيم والتنسيق وترشيد[107] الموارد، سواء المتاحة منها أو المبحوث عنها خارج الحدود الوطنية، من أجل بلوغ الغايات والمرامي الكبرى للتنمية المستدامة، التي يُوضع/يُوجد الإنسان ضمن

---

[105]- د. عبد الكريم القنبعي الإدريسي، مقتطف من محاضرات مادة الديموغرافيا، الفصل الثاني، مسلك علم الاجتماع. إصلاح 2014.

[106]- محمد صفوح الأخرس مرجع سابق ص 24.

[107]- نفس المرجع، ص 24.

أولوياتها، أي أن الإنسان موجود في رسم هذه السياسة كنقطة البداية وكنقطة النهاية، بمعنى آخر تبدأ من الإنسان وتنتهي عند الإنسان، مركزة في عملية ترسيخها على مراعاة الحاجات الإنسانية لصيانة كرامته وحفظ حقوقه مقابل واجباته.

المحاضرة الخامسة عشر والسادسة عشر:

رابعا: "مالتوس" ونقد المالتوسية

1- لمحة مختصرة عن حياة "مالتوس"

ولد الأب* "توماس روبرت مالتوس" Thomas Robert Malthus في انجلترا سنة 1766م، وبعد أن تم دراسته القانونية، التحق "بجامعة كمبردج" لدراسة اللاهوت، شغل منصب أستاذ للتاريخ وعلم الاقتصاد من سنة 1806م حتى وفاته في سنة 1834م.

له العديد من المؤلفات من بينها "تجربة حول قانون السكان وكيف يؤثر على تنظيم المجتمع المقبل، مع ملاحظات عن آراء السيدين "غودوين" و"كوندورسي" وغيرهما من الكتاب" وكذا مؤلف آخر تحت عنوان "أسس الاقتصاد السياسي" إلى غيرهما من الأعمال الأخرى في السكان والاقتصاد.

اشتهرت "جامعة كمبردج" بالرياضيات التي برع فيها هو شخصيا، حتى أنه صار لا يعتقد في شيء ينقصه الدليل، وقد استطاع بفضل نبوغه وتقدمه في الدراسة، أن يشغل منصب عضو بهيئة التدريس بمدرسة اللاهوت سنة 1793م، وفي سنة 1796م أصبح عضوا في الكنيسة (قسيسا) بالإضافة إلى وظيفته الأساسية كمدرس للدين "بجامعة كمبردج"، حيث كان عكس والده الذي كان من أصحاب الأراضي الزراعية، ومن الأصدقاء الشخصيين لأحد كبار مفكري فرنسا يومئذ وهو "جان جوك روسو"، والذي كان من المؤمنين بالنظرة التفاؤلية التي سادت القرن 17م على أيدي "كيناي" و"كوندرسيه" و"جودوين"، بل إعجابه بالآراء المتفائلة لهؤلاء الفلاسفة، وإعلان هذا الإعجاب على كل من حوله ومن بينهم ابنه، إلا أن الابن على الرغم من ذلك قد تأثر بالظروف السيئة التي أحاطت بالمجتمع البريطاني يومئذ، والتي عاش هو في ظلها، ومن ثم جاءت آراؤه

ومفاهيمه واتجاهاته على عكس والده، مما جعل البعض يتوهم أنه – من جهة – من محبي الظهور، ومن جهة أخرى، من الباحثين عن حلول جديدة وجدية للمشكلات الاجتماعية المتصلة بالسكان، ومن جهة ثالثة، – لاسيما بعد مهاجمته لسياسية "وليم بت" W.Pitt رئيس وزراء بريطانيا يومئذ – أنه من الباحثين عن المجد السياسي ... والصحيح أنه اتخذ لنفسه مسارا جديدا بعيد عن تيارات التفاؤل التي تقوم على عوامل عاطفية وتستولي على أفئدة الناس دون إمعان العقل فيها بالدراسة والتحليل، وهو المسار الموضوعي في تناول مشكلة السكان. [مقتطف حياة ومسار مالتوس كما أورده الدكتور "زيدان عبد الباقي" الأستاذ بكلية البنات الإسلامية "جامعة الأزهر" وقت صدور مؤلفه المعنون "أسس علم السكان" للأمانة العلمية فقط].

2- أسباب ظهور نظرية مالتوس

عرفت إنجلترا ودول أوربا الغربية عموما خلال الفترة التي عاش فيها "مالتوس" تحولات اجتماعية واقتصادية مهمة، تسببت في ارتفاع بسيط في معدل السكان، وقد انتشرت في تلك الفترة فكرة أساسية مفادها "أن الشعب الكثير العدد يكون ذا قوة اقتصادية وعسكرية، وذلك بغض النظر عن الظروف التي يعيش في ظلها أفراد هذا الشعب"[108].

في هذه الفترة الزمنية، كانت انجلترا تعتمد على الزراعة أكثر مما تعتمد على الصناعة"[109]، الأمر الذي ساعد على ظهور نظريته وانتشارها في عدد من الأقطار الأخرى.

نستنتج من هذا المقتطف، أن الظروف السيئة للمجال الاقتصادي وتأثيرها على المجال الاجتماعي والديني، هي التي كانت سببا قويا في ظهور نظرية "مالتوس" أو ما يعرف عند الجغرافيين والديموغرافيين ب "المالتوسية والظاهرة السكانية".

---

[108] – فتحي محمد أبو عيانة، دراسات في علم السكان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1985، ص

[109] – محمد عوض محمد، سكان هذا الكوكب، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ط 3، 1955، ص 282.

3- نظرية مالتوس

رغم أن كل المؤشرات والدلائل كانت تؤكد على تحسن مجالات الحياة اليومية للإنسان الأوروبي عامة، خاصة في بريطانيا وفي فرنسا وحتى في أمريكا الشمالية، من خلال ظهور بوادر الثورة الصناعية وانتقالها من إنجلترا إلى باقي الدول السابقة الذكر، رغم كل هذا، إضافة الى الإيمان بسيادة العقل في التعامل مع كل ما يمكن أن يعيق هذا التطور والتحول والتغيير الحاصل على مستوى منطقة أوروبا وخارجها (أمريكا الشمالية)، ورغم كذلك كل ما بثه الفلاسفة الثلاث (SUSSMILCH; CONDORCET; W. GODWIN) من نظرة تفاؤلية حول مصير السكان ومآله في العيش وما يصبو إليه، لم يكن "مالتوس" مطمئنا[110]، بل كان متشائما إلى أبعد الحدود، الشيء الذي جعله يبني نظريته في السكان على سؤال استشكالي واستفهامي في نفس الوقت، وهو كالتالي: "ما دور النمو السكاني على رفاهية هؤلاء السكان؟"[111]

إن التعامل مع هذا السؤال من منطلق العديد من الاختراقات العلمية الممنهجة في عملية التحليل، لوضع الحلول وتسطيرها وقف مقاربة شاملة وتامة، بناء على قوانين وضوابط وقواعد تؤسس لمعرفة علمية جديدة إلى حد ما، أي غير خاضعة للتخمينات أو إلى النظر إليها من الزاوية الدينية وربطها بقدرة الله، كل هذه الاختراقات الممنهجة والتي استمدت شرعيتها من العلم كنسق إدراكي، اعتبرت كبداية علمية في دراسة الظاهرة السكانية، بل كانت هي الدفعة الأخيرة والقوية لاستقلال علم السكان عن علم الاجتماع بعدما كان يشكل أحد فروعه كغيره من الفروع، بمعنى أن التطور الممنهج لبعض فروع علم الاجتماع هو الذي حدا بهم إلى الاستقلال والتموقع في صف العلوم التي تتميز بموضوعها ونظرياتها وآليات اشتغالها وأقطابها.

---

[110] – زيدان عبد الباقي، التفكير الاجتماعي، مرجع، سابق، ص 47.

[111] – نفس المرجع ص 47.

كان "مالتوس" يرى أن الزيادة في عدد السكان يشكل خطرا على الدولة، وكان ذلك واضحا في مقولته الشهيرة و التي عرف من خلالها بالتشاؤم "قوة الإنتاج الطبيعي (الأرض) أقل بكثير من قوة وإنتاج الإنسان"، بمعنى أنه كان يعتبر ، التزايد في عدد السكان يقوم أساسا على التزايد في وسائل العيش، ليصل في الأخير الى أن كل تحسن في مستوى المعيشة سوف يكون صعبا ما دام هذا التحسن يرافقه تزايد في عدد السكان، الشيء الذي جعله يعتبر أن "قدرة السكان على التزايد أعظم بكثير من قدرة الأرض على إنتاج وسائل العيش للإنسان"[112]، وهذا ما يظهر جليا في نظريته في السكان التي تقوم على بعدين:

*بعد هندسي في تزايد السكان طبقا للمتتالية/للمتوالية الهندسية (1-2-4-8-16-32-64-128... وهكذا دواليك).

*بعد حسابي في تزايد السكان طبقا للمتتالية/للمتوالية الحسابية (1-2-4-6-8-10-12-14-18... وهكذا دواليك).

أي أن الزيادة السكانية تتبع متتالية/متوالية هندسية بينما زيادة الغذاء تتبع متوالية عددية"[113].

من خلال البعدين يظهر أن تضاعف أعداد السكان يسير بطريقة مخيفة، في حين نجد أن الغذاء يزيد وفق منظومة رقمية تصاعدية بشكل تراتبي. وهنا يوضح "مالتوس" مدى الفوارق في الإمكانيات بين قدرة السكان على الزيادة، وقدرة الأرض على إنتاج الموارد الطبيعية لإشباع حاجات الإنسانية للبقاء و الاستمرار في العطاء. كما تظهر لنا الأهمية التي أعطاها للعلاقة بين السكان والموارد الطبيعية التي يمكن للأرض إنتاجها.

[112] . نفس المرجع ص: 283.

[113] . نفس المرجع ص: 300.

وهذا ما حقق "لمالتوس" شهرة كبيرة نظرا لكونه كان من السباقين لإثارة مشكل الموارد الغذائية/الطعام في علاقتها بالتزايد السكاني. الشيء الذي قد جعل العالم حسب نظريته معرضا لمشاكل كثيرة منها على وجه الخصوص الجماعة، حيث ستتناقص كمية الغذاء بشكل فضيع تقل فيه وسائل ناجعة والقادرة على حل الأزمات، لكن السؤال الذي يمكن أن يتبادر إلى أذهاننا والذي ربما يشكل غموضا أو لبسا في نظرية "مالتوس" هو:

- **لماذا لم يصل العالم حتى الآن إلى مرحلة الأزمة إذا كانت نسبة السكان ترتفع بالطريقة التي حددها؟**

فبالرغم من الجانب العلمي الذي تميزت به "نظرية مالتوس في السكان" إلا أنها تقوم على أساس ديني واقتصادي وإحصائي في نفس الآن، مما جعله ينجح في إيجاد معامل الارتباط بين دلالة الأرقام ومدلولات النمو الاقتصادي والإنجاب[114].

وعليه يجيب "مالتوس" على السؤال السابق بشكل صريح، معتبرا أن هناك بعض الموانع التي تحول دون نمو السكان بالطريقة الهندسية، وبالتالي منعت حدوث انفجار سكاني حتى الآن، وانطلاقا من استحالة التوافق بين ازدياد عدد السكان والموارد الطبيعية، على اعتبار أن الأولى لا تعرف حدودا بل هي مرتبطة بالإشباع الجنسي بين الذكر والأنثى، بينما الثانية تعرف حدودا تقف عندها، الأمر الذي يحول دون هذا التوافق، انطلاقا من هذه القاعدة حاول "مالتوس" أن يقدم ثلاثة أنواع من العوائق/الموانع[115] وهي:

- **الموانع الوقائية**
- **الموانع الإيجابية**
- **الموانع الأخلاقية**

[114] – نفس المرجع ص 48.

[115]- زيدان عبد الباقي، أسس علم السكان، مرجع سابق، ص 56.

وسنعرض لكل مانع من الموانع/العوائق الثلاثة حسب منظور "مالتوس" في مؤلفه، خاصة في الطبعة الأولى.

- **الموانع/العوائق الوقائية**

ويعتبرها "مالتوس" موانعا تحول دون الزيادة في عدد السكان، أي هي كل الموانع الوقائية التي تعمل على تقليص نسبة الولادات في المجتمع، بمعنى أنها تعمل على انخفاض معدل الولادات، ومن وأبرزها ما سماه "مالتوس" بالضبط الأخلاقي ومرده الى الامتناع عن الزواج، أو عدم استحسان فكرة الزواج المبكر، ويعني به تأجيل الزواج مع الاحتفاظ بسلوك عفيف طوال مدة التأجيل، وهو يرى أن تأجيل الزواج هو المانع الوقائي الرئيسي، والحل الأمثل للحد من التزايد المهول للسكان.

إن محاولة كبح النفس أثناء الزواج (أي الإقلال قدر الإمكان من الفعل الجنسي)، عدم السقوط في الرذيلة، عدم الدخول في علاقات غير شرعية، وغيرها من الموانع التي يمكن أن تفرمل الرجل والمرأة معا، وفي نفس الآن من ولوج عالم العلاقة الحميمية المثمرة بالنسل أو المؤدية للإنجاب، وبهذه الموانع الوقائية يمكن أن نتغلب على حجم السكان، رغبة في توافقه ومطابقته لحجم الإنتاج الزراعي والغذائي لضمان رفاهية وسعادة المجتمع.

- ✓ **الموانع/العوائق الإيجابية**

تتمثل العوائق/الموانع الإيجابية في ثالوث الخطر المكون من ثلاث (3) زوايا، يمكن أن تعمل بشكل طبيعي على نقص عدد وحجم السكان في المجتمع، بالتأثير في/على معدل الوفيات، وهي نتيجة لضغط السكان على وسائل العيش، ويرجع "مالتوس" هذه الموانع إلى الزوايا الثلاث: زاوية الجوع، زاوية المرض وزاوية الحرب[116]، بمعنى أن أهم هذه الموانع

[116]- نفس المرجع، ص 57.

يتجسد في المجاعات والأوبئة والحروب وغيرها من الموانع الأخرى وقد "رأى مالتوس أن الموانع الإيجابية هي التي تقضي على الحياة التي بدأت فعلا"[117].

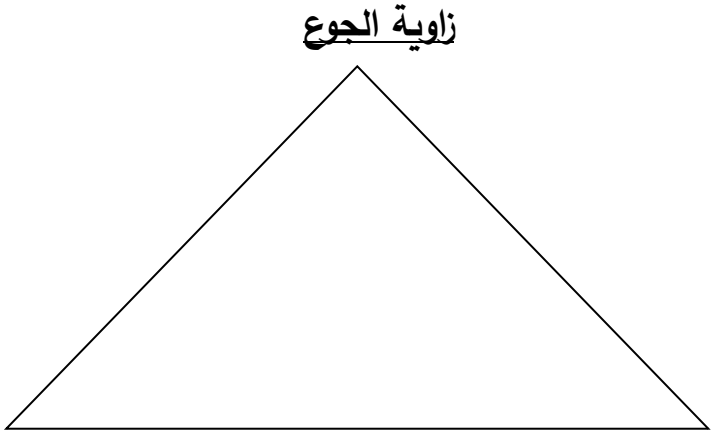

إضافة إلى موانع طبيعية كالبراكين، والزلازل، والفيضانات، وكل ما من شانه أن يعمل على تقليص حياة الإنسان مثل: (الأعمال الشاقة والضارة بالجسم) من جهة، والرفع من زيادة معدلات الوفيات من جهة أخرى.

- ✓ **الموانع/العوائق الأخلاقية**

لقد تم إضافة هذه الموانع الأخلاقية في الطبعة الثانية من مؤلفه، لأن الفترة الزمنية التي ظهرت فيها الطبعة الأولى، كانت تتخللها صراعات خفية ومواجهات مع رجال الدين، الأمر الذي منعه من ذلك، وعندما هدأت الأمور وتحسنت العلاقة مع رجال الدين، ارتأى أن يضيف هذه الموانع الثالثة والمتعلق بالجانب الأخلاقي إلى النوعين الآخرين من الموانع (الموانع الوقائية والموانع الإيجابية).

[117] . نفس المرجع ص 301.

خلاصة العائق/المنع الأخلاقي أنه يتعلق برؤية الإنسان ووضعه الاقتصادي أولا، بمعنى هل يتوفر على إمكانيات اقتصادية تؤهله إلى الزواج، وفتح بيت وتكوين أسرة وإشباع حاجات أفراد هذه الأسرة في المستقبل أم لا؟.

فإذا كان الأمر كذلك، فلا بأس أن يتزوج الرجل وينشأ أسرة ما دام أنه ليس هناك ما يمنع ذلك، أما إذا كان العكس، أي أنه لا يتوفر على أدنى الإمكانيات التي تؤهله لذلك، فعليه أن ينصرف عن الزواج إلى أجل مسمى، أو أن يتزوج عندما يفقد القدرة على الإنجاب، لكن عليه ألا ينزلق في الرذيلة، بمعنى أن يتحصن ضد المغريات خاصة الجنسية، لأن حقيقة طبيعة هذه الغريزة، لا تشبه إلى حد كبير غريزة الأكل والشرب، لأن الإنسان لا يمكن أن يستغني عنهما، لكن غريزة الجنس يمكن للإنسان أن يتجاوزها بقليل من الورع والتقوى وكبح النفس، والابتعاد عن المغريات الجنسية في الواقع المعيش، لأن غريزة الجنس يمكن تأجيلها وليس القضاء عليها، لأن الهدف منها هو الانقسام والتوالد والاستمرار والبقاء في الكون، يقول الحق سبحانه في محكم كتابه "وليستعفف الذين لم يجدوا نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله..." سورة النور الآية 33.

وإذا حاولنا إسقاط هذه الموانع على التاريخ الإنساني بغية التحقق من فكرة "مالتوس"، فقد سنجد أن قارات العالم عرفت حدوث مجاعات كانت ناتجة عن الكوارث الطبيعية مثل: الفيضانات ونقص الأمطار لسنوات متتالية، الشيء الذي سبب في نقص حاد في عدد السكان لدرجة أن بعض المناطق أصبحت خالية من السكان بعد حدوث هذه الظواهر، ولعل الكتب التاريخية التي تتحدث عن المجاعات في العالم القديم كفيلة بالمزيد من الشروحات والإيضاحات، كما تعتبر الأمراض الوبائية من أبرز الموانع التي يرى "مالتوس" أنها كانت السبب في إنقاص حجم السكان في العالم، وذلك نظرا للطريقة التي كانت تنتقل بها هذه الأمراض مثل، التيفويد، والجذري وداء السل، وغيرها من الأمراض الفتاكة، وقد استمر سكان العالم على هذا الحال حتى المائة وخمسون أو المائتين سنة

الأخيرتين"[118] كما "شهد العالم بعض الأوبئة التي كان لها أثر كبير على سكانه، ومن أشهرها الموت الأسود **The Black Death** أو مرض الطاعون الذي انتشر في القارة الأوروبية بين سنتي **1348**م و **1350**م وأدى إلى تناقص عدد سكانها"[119]، أما الحروب التي كانت تمتد لمدة طويلة، فقد لعبت هي الأخرى دورا كبيرا في نقص عدد السكان ""فمنذ فجر التاريخ والإنسان يحارب أخاه الإنسان، وكانت الحرب بين القبائل في البداية، ثم امتدت فيما بعد لتصبح حربا بين دول بأكملها. ولعلك تظن أن أكثر من يموتون في أثناء الحرب يموتون على أرض المعركة، ولكن من الناذر أن يحدث هذا، فإن عدد المدنيين الذين يموتون يفوق عدد العسكريين القتلى"[120]، الأمر الذي جعل "مالتوس" يصنفها في المرحلة الثالثة بعد المجاعات والأوبئة.

من هنا يعتبر "مالتوس" أن الموانع الإيجابية والموانع الوقائية والموانع الأخلاقية، هي الأسباب الحقيقية المسؤولة عن بطء تزايد السكان في جميع دول العالم، وأن أي زيادة سريعة في عددهم هي بالضرورة نتيجة لغياب هذه الموانع.

نستنتج أن التربية الدينية والدراسة الدينية معا أثرتا بشكل كبير على مسار حياة المفكر العالم "مالتوس" بشكل كبير، حتى أن آثارهما يظهرا جليا في تحليل الظاهرة السكانية رغم الشرعية والمصداقية العلمية التي تتمتع بهما.

4 "مالتوس" والظاهرة السكانية

ترمي نظرية "مالتوس" بالنسبة للظاهرة السكانية، إلى أن حجم السكان مرتبط أشد الارتباط بحجم الموارد الطبيعية، (أي الموارد التي تحدد إشباع الحاجات الفيزيولوجية

---

[118] . نفس المرجع ص: 133.

[119] . نفس المرجع ص: 135.

[120] . ليليان غرانكل، ترجمة أحمد فؤاد نجيب، هذا العالم المزدحم. مقدمة لدراسة علم السكان، دار نهضة للطبع والنشر، القاهرة، 1972، ص

الأساسية الأولى ثم الثانية فالثالثة)[121]، بمعنى آخر أن الموارد الطبيعية تحدد عدد وحجم السكان في منطقة جغرافية معينة.

إذا اختل ميزان توازن العدد السكاني مقابل الكمية الغذائية بطريقة عكسية نحو الأعلى تحصل الأزمة في المجتمع، وبالتالي لابد من تدخل بعض العوامل الخارجية لإعادة هذا التوازن[122] الذي يضمن للمجتمع ولساكنته مواصلة مسيرة الرفاه والتقدم نحو السعادة والشعور بالأمن والأمل في العيش الرغد، ومن تم تنشأ الحضارة.

خلاصة القول، بالنسبة ل "مالتوس" أن حجم السكان يتضاعف كل خمسة وعشرين سنة (أي كل 1/4 قرن) في حالة عدم وجود عائق لهذه الزيادة العددية، الأمر الذي يستحيل معه زيادة حجم الإنتاج الزراعي، في هذا المسعى تقوم نظريته بشكل كبير على الجانب الحيوي مبتعدة في ذلك على الجانب الاجتماعي والاقتصادي[123]، وللمزيد من الإيضاح والتوسع المعرفي بعرض لمؤلفات "مالتوس"، لمن يريد من القراء أو الطلبة أو المهتمين في بعض التخصصات أن يلم بعلم السكان عامة، أو الظاهرة السكانية مقابل الظاهرة الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والسيكولوجية والجغرافية والبيولوجية... على حد سواء.

لقد اعتمد "مالتوس" في تأسيس نظريته في السكان على قواعد البحث الاجتماعي الإمبريقي، بمعنى أنه حدد لها إشكالية/ مسألية "مشكلة" (على حد تعبير بعض رواد علم الاجتماع في الشرق).

انطلق "مالتوس" في دراسته للظاهرة السكانية من هذه الإشكالية، إلى طرح العديد من الفرضيات (الفروض/ الاحتمالات)، وهو بهذا العمل الممنهج، يمكن أن نقول أنه وفق

121- أنظر في هذا المنحى هرم الحاجات عند **"أبراهام ماسلو"**.

122- . زيدان عبد الباقي، التفكير الاجتماعي، مرجع سابق، ص 59.

123- نفس المرجع ص 59.

في دراسة الظاهرة السكانية بمناهج/طرق البحث الاجتماعي، من خلال تسطير الإشكالية التي تتفرع منها أسئلة تتعلق بصفة عامة بحجم السكان، ووضع فرضيات كآليات إختبارية من خلال وسائل البحث العلمي لإثبات صحة هذه الفرضيات وصدقها أو إلى الذهاب على تفنيدها ودحضها.

إن الدراسة العلمية هذه، كانت في تلك الحقبة تهدف بكل تورط علمي إلى إيجاد أجوبة عقلانية (بعيدة عن الحدس أو الدين أو التخمين...) لسؤالين رئيسيين، كما حددهما وهما كالتالي:

- ✓ **السؤال الأول: ما هي نتيجة زيادة السكان الطبيعية لو تُركت لتعمل في حرية تامة؟**
- ✓ **السؤال الثاني: ما هو المدى الذي يمكن أن ترتفع إليه نسبة الزيادة في غلة الأرض وسط أكثر الظروف ملائمة في الكفاح الإنساني[124].**

وللإجابة على هذان السؤالان، حدد "مالتوس" مشكلة/إشكالية الدراسة في الجملة التالية:

بمعنى أن (مشكلة دراسة "مالتوس") تتلخص في الجملة التالية:

الاتجاه الثابت لجميع المخلوقات الحية يكمن نحو التزايد بدرجة أكثر من الغذاء المتاح لها[125].

إن العمل على اختيار هذه المشكلة، والوقوف على طبيعة المعادلة الطبيعية* بين حجم السكان وحجم الموارد الطبيعية، ارتأى "مالتوس" وضع بعض الفرضيات/الاحتمالات والتي حددها على الشكل التالي[126]:

---

[124] – نفس المرجع ص 52.

[125] – نفس المرجع ص 51.

* – المعادلة الطبيعية (بين حجم السكان وحجم الموارد الطبيعية) باعتبارها عائقا طبيعيا، كذلك يحول دون وصول الإنسان إلى السعادة.

1- إن الإنسان كغيره من الكائنات الحية، يتزايد بسرعة أكبر من تزايد وسائل العيش، وهذا التزايد تقيده عوامل متنوعة.

2- إن سبب الفاقة، يعود في الأساس إلى عدم التوازن بين الحجم السكاني وحجم الموارد الطبيعية لإشباع الحاجات الضرورية وغير الضرورية.

3- عدد السكان يحدد بالضرورة بواسطة مواد التغذية، بمعنى أن هناك ارتباط أساسي بين حجم السكان وكمية القوت.

4- تطرد زيادة السكان كلما ازدادت كمية القوت، ولا تقف هذه الزيادة إلا إذا عاقتها عقبات قوية لا سبيل إلى منعها.

5- مرد/تعود هذه العقبات إلى المتغيرات التالية:

- **متغير المانع الأدبي/الأخلاقي.**
- **متغير الرذيلة.**
- **متغير الفاقة.**
- **متغير العوز* (أي الحاجة الماسة والضرورية لشيء ما).**

سُطرت كل هذه الخطوات المنهجية بهدف إيجاد حل توافقي بين السكان وكمية المحاصيل الزراعية والغذائية، التي تستجيب للحاجات الفيزيولوجية للإنسان، كان الهدف

---

[126] -. زيدان عبد الباقي، التفكير الاجتماعي، مرجع سابق، ص 51.

*- **العوز** ككلمة لم تأتي في "**القرآن**" إطلاقا، ولكنها أتت في العهد القديم مثال أول "**سفر أيوب**": الإصحاح 30، الآية 3 (في العوز والمحل، مهزولون، غارقون اليابسة التي هي منذ أمس خراب وخربة) مثال ثاني: "**سفر يشوع بن سيراخ**": الإصحاح 18 الآية 26 (في وقت الشبع أذكر وقت الجوع وفي أيام الغنى أذكر الفقر والعوز)، مثال ثالث "**سفر الأمثال**": الإصحاح 21 الآية 25 (أفكار المجتهد إنما هي للخصب وكل عجول إنما هو العوز). كان من المفروض أن نضرب هذه الأمثلة الثلاثة لمفهوم العوز حتى نبين للقراء ولطلبتنا الأعزاء وغير العارفين بالمرجعية اللغوية لدولة مصر الشقيقة، التي تعرف بغنى وتعدد المفاهيم التي اختلطت مع بعضها البعض، فكونت لغة عربية مصرية من اختلاف وتنوع وتعايش بين المسلمين والأقباط واليهود في تراضي وقبول... إنه الإنسان في نهاية المطاف ولا شيء غير الإنسان.

منها الوصول إلى إثبات نظرية المتوالية/المتتالية الهندسية مقابل نظرية المتوالية/المتتالية الحسابية، بمعنى أن "مالتوس" حاول أن يخلص إلى نتيجة علمية مستخلصة من دراسة مفادها، أن بني الإنسان يتزايد وفق متوالية/متتالية هندسية، بمعنى أن كل واحد يستطيع أن ينجب ذرية متضاعفة، وتواصل هذه الذرية بدورها هذا التكاثر[127].

أما المتوالية/المتتالية الحسابية، فتسير ببطء شديد، مقارنة بالمتوالية الهندسية، لأنها تخص طريقة ومعدل زيادة حجم الإنتاج الطبيعي، الذي هو أساسي وضروري لبقاء واستمرار الإنسان.

وسنعرض لمقارنة بين المتواليتين الهندسية والحسابية عبر الجدول التالي:

جدول رقم 2

المتوالية الهندسية طريقة تزايد حجم السكان	المتوالية الحسابية طريقة تزايد حجم الإنتاج الطبيعي
1 (فرد)	1
2 فردان	2
4 أفراد	3
8 أفراد	4
16 فرد	5
32 فرد	6

[127] – . زيدان عبد الباقي، التفكير الاجتماعي، مرجع سابق، ص 53.

64 فرد	7
128 فرد	8

وكذلك لمزيد من الفهم والاستيعاب سنعرض في جدول يوضع مبدأ "مالتوس" في العلاقة بين الزيادة السكان وزيادة المنتجات الزراعية[128].

جدول رقم 3

السنة	عدد السكان في العالم بالألف مليون سنة	كمية القوت في العالم بالألف مليون طن
سنة 1700م	1	1
سنة 1725م	2	2
سنة 1750م	4	3
سنة 1775م	8	4
سنة 1800م	16	5
سنة 1825م	32	6
سنة 1850م	64	7

[128]- نفس المرجع، ص 55.

سنة 1875م	128	8
سنة 1900م	256	9

الجدول مأخوذ كما هو من المرجع المعتمد زيدان عبد الباقي، التفكير الاجتماعي

5-حتمية المواجهة بين الدين والعلم

إن العمل الذي قام به "مالتوس" في دراسة ظاهرة السكان، أدت به إلى حقيقة مبناها يقوم حتما على مواجهة رجال الدين حالما تخرج دراسته إلى الوجود، وتنشر بين عامة الناس وخاصتهم، لأنه كان مقتنعا أشد الاقتناع بعدم التوافق بين حجم السكان وحجم الموارد الطبيعية، وبالتالي الأمر سيؤدي إلى كارثة إنسانية لا يمكن أن تخضع في تعديلها لقدرة الله كما هو في أفكار الفلاسفة الذين سبقوه، وعليه حاول أن يبرر موقفه العلمي هذا من خلال العناصر التالية[129]:

1- ضرورة الغذاء لحياة الإنسان واستحالة الاستغناء عنه.
2-ضرورة الإشباع الجنسي بين النوعين واستحالة الانصراف منه.
3-قوة السكان في التزايد أعظم من قوة الأرض في إنتاج المحاصيل الزراعية.
4-يتزايد السكان طبقا لمتوالية/لمتتالية هندسية.
5-تتزايد المحاصيل الزراعية والغذائية طبقا لمتوالية/لمتتالية حسابية.

هذه العناصر الخمسة هي التي شغلت باله وتفكيره، ودفعت به إلى البحث على حلول علمية لمنع عدم التوازن بين تزايد حجم السكان من جهة، وتزايد حجم الموارد الزراعية والغذائية من جهة ثانية، إن التوازن بهذا الشكل يستحيل أن يتحقق، وعلى هذا الأساس نشر مقالته الأولى بدون توقيعه حتى لا يصطدم مع رجال الدين خاصة وأنه

[129] – نفس المرجع ص 48.

منهم، لكن ما خاف منه "مالتوس" قد وقع، وعندما انكشف أمر صاحب المقال دخل في مواجهة مع رجال الدين الذين نعتوه بأنه ضد الدين ووصفوه بالقنوط من رحمة الله[130].

لا زالت "نظرية مالتوس" حتى الآن تحظى باهتمام كبير من طرف العديد من الدول خاصة النامية منها، والتي تعيش حالة تزايد سريع في عدد السكان، حيث حددت نظريته معالم عامة عن ازدحام السكان في عالم اليوم، وذلك لأن ما يقارب من 2/3 ثلثي سكان العالم يعتمدون حتى الآن على الموانع الإيجابية التي نادى بها "مالتوس"، وهؤلاء السكان يعيشون في دول متخلفة[131]، فهذه الدول تعيش كارثة إنسانية متمثلة في المجاعات والحروب والأوبئة، كما أن هناك ظواهر اجتماعية، قد يرى البعض أنها دليل على ازدحام البلاد بالسكان، مثل انتشار الفقر وكثرة العاطلين[132]، كما أن هناك آراء أخرى تصب في نفس الاتجاه، والتي ترى أن العالم الحالي يعيش الأزمة التي تنبأ بها "مالتوس".

6-مؤلفات "مالتوس"

1- "بعض ملاحظات على آثار قوانين الغلال"، صدر سنة 1811م.

2- "العائد الزراعي"، صدر سنة 1815م.

3- "بحث في قانون الفقراء"، صدر سنة 1817م.

4- "مبادئ الاقتصاد السياسي من خلال تطبيقاتها العملية"، صدر سنة 1819م.

5- "التعاريف في الاقتصاد السياسي"، صدر سنة 1827م.

المحاضرة السابعة عشر:

7-الانتقادات الموجهة لنظرية "مالتوس"

ربما كانت آراء "مالتوس" في السكان من أكثر الآراء شهرة في هذا المجال، وتعرضت على امتداد القرنين الماضيين - بل وما زالت تتعرض حتى اليوم -

[130] - نفس المرجع ص 49.

[131] . د. صلاح الدين نامق، الانفجارات السكانية في العالم، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، 1964، ص 20.

[132] . د. محمد عوض محمد، مرجع سابق، ص

إلى الكثير من النقد اللاذع، سواء ما كان منها مؤيدا أو معارضا، إلا أن أطروحته التشاؤمية قد قوبلت بالعديد من الاعتراضات سواء في حياته أو بعد وفاته، ويمكن حصر بعضها في الآتي:

إن افتراض "مالتوس" بأن السكان يتزايدون وفق متتالية/متوالية هندسية، هو افتراض صحيح نظريا – أي من وجهة علم الرياضيات – إلا أن ذلك مستحيل التحقق على أرض الواقع، لأنه لا يمكن أن نفترض أن عدد السكان سيتضاعف إلى ما لا نهاية. كما أن الغذاء/الطعام لا يمكن أن يتزايد باستمرار وفق المتتالية/المتوالية الحسابية التي وضعها "مالتوس"، فنظريته حققت نجاحا كبيرا قبل الثورة الصناعية والثورة الزراعية، وما تحقق من خلالهما من فائض كبير في الإنتاج ، كما عملتا على خلق آفاق جديدة، ويعتبر هذا المنحى هو الجانب الذي تم إغفاله من طرف "مالتوس"ن بمعنى أن مالتوس لم تكن له نظرة توقعية لمل سيكون عليه العالم بعد عدة سنوات يمكن أن تصل الى قرن أو قرنين أو أكثر، لأن همه الوحيد كان مركزا على نظريته التي كان يغلب عليها الطابع التشاؤمي في تلك الفترة، أما الآن، وقد تغيرت ظروف المعيشة، فيمكن القول بأن نظريته لم تعد صالحة لاعتمادها في رسم استراتيجيات سياسية للدول التي تريد/ترغب في خلق توازنات بين سكانها ومواردها الطبيعية، خاصة في تطبيق مبادئ التنمية المستدامة:

- دول غنية غنية * دول فقيرة فقيرة
- دول غنية فقيرة * دول فقيرة غنية.

وقد كذب تاريخ الاقتصاد منذ عهد "مالتوس" ما ذهب إليه في كل شيء، لقد ارتفع عدد سكان العالم ارتفاعا بالغا، بينما انخفضت الوفيات في كل أنحائه، وارتفع مستوى المعيشة في كل مكان، وهبطت أسعار الطعام بمعايير المجهود البشري هبوطا ملحوظا، ومن الراجح أنها انخفضت أيضا بالنسبة لأسعار السلع والخدمات الأخرى، وأسباب فشل افتراضات "مالتوس" معروفة لقد فتحت أراض جديدة في أمريكا وأستراليا، بل وأهم من هذا تطورت التقنيات للزراعة وأدى هذا التقدم الفني إلى الحصول على طعام أوفر من نفس

المساحة من الأرض"[133]. وأصبحنا اليوم نرى العديد من الدول تعاني مشكلة فائض الإنتاج وليس نذرته بالرغم من أن هذه الدول تتوفر على نسبة كبيرة من السكان مثل الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال، كما أن "مالتوس" لم يضع في حسبانه التقدم العلمي التكنولوجي الذي جعل العالم بجغرافيته الواسعة والكبيرة قرية صغيرة، بحيث تستطيع الدولة تلبية حاجياتها من الغذاء الذي لا تتوفر عليه عن طريق جلبه من الدول الأخرى، كما تستطيع أن تصدر ما تنتجه بكميات كبيرة إلى غيرها مما يحقق توازنا في علاقة السكان بالغذاء وهذا كله في فترة زمنية محددة جدا.

انطلق "مالتوس" من مرجعيته كرجل دين في القول بتأخير الزواج أو الامتناع عنه كسلوك أخلاقي لا يتنافى مع الديانة المسيحية، لأن الهدف منه هو حصر عدد السكان وعدم الزيادة فيه بشكل طبيعي عن طريق النسل/الإنجاب، وفي العصر الراهن لا يوجد من يتفق مع "مالتوس" في هذا الشأن" فهناك من العلماء من يعتقدون بأن قوانين "مالتوس" "تميل إلى عقم الرجل العصري وأنها تمنحه تلقائية الموانع الوقائية"[134]، وعليه نجد العديد من المفكرين و المنظرين والاقتصاديين اليوم لا يقبلون بنظرية "مالتوس" على أساس أنها لم تعد صالحة ومواتية للظروف المعيشية في ظل العولمة والتطور الدائم والمستمر والمعيشين خاصة في بعض الدول التي تعرف الى حد ما استقرارا ملحوظا في المجال الاجتماعي و الاقتصادي والسياسي، كما أثبتت الدراسات الإمبريقية الحالية والبحوث الأكاديمية لبعض مؤشرات التنمية لبعض الدول ولمعدل الدخل الفردي فيها، أن الفقر يعود إلى أسباب كثيرة غير متغير ازدحام الناس في رقعة جغرافية معينة، وكما نعرف، تحتاج هذه الأسباب إلى بحوث مطولة ودراسات إمبريقية، خاصة السياسات الحكومية في التعاطي مع مؤشر الفقر فيها"[135].

---

[133] . روى فرانسيس، ترجمة محمد محمود الصياد، "السكان في عالم الغد"، مكتبة مصر، القاهرة 1958، ص 219.

[134] – صلاح الدين نامق، مرجع سابق، ص 151.

[135] – محمد عوض محمد، مرجع سابق، ص 151.

كما أن نظرية "مالتوس" تشاؤمية إلى حد يستحيل معه العمل من أجل التغيير، أي تجعل الإنسان سلبيا تماما، كما يعتبر "أن الأنظمة البشرية مهما صلحت فلن تفيد إلا في التخفيف من الموانع الإيجابية لفترة قصيرة، أي إلى أن يزيد عدد السكان حتى يلتحق بقدرتهم الإنتاجية في ظل الأنظمة الجديدة، وأن الإنسان في هذه الحالة سوف يعاني من الجوع والمرض والحرب"[136].

إن التصدي للفقر كآفة/كظاهرة اجتماعية، لا يمكن أن يكون من خلال حصر عدد الناس في الدولة، أو إعطاء/تولي الدولة العناية الكبيرة بتحديد حجم السكان الأمثل، لخلق توازن بين السكان والموارد الطبيعية، ولكن يجب الاهتمام بالتصنيع كما يلزم عصر العولمة باتخاذ إجراءات استباقية واحترازية، باعتباره (أي التصنيع) معيارا لتنمية شاملة وخطوة ناجعة في تحقيق حصر دائرة الفقر في البلاد، والقضاء على البطالة. لقد حققت الدول الغربية وبعض الدول الأسيوية، تقدما ملموسا في المجال الصناعي على كافة المستويات، الأمر الذي دفع بها الى الزيادة في طلب اليد العاملة من العمالة الدولية، إما عن طريق إبرام اتفاقيات في هذا المجال أو تقنين الهجرة باعتماد الهجرة الانتقائية حسب عروض الطلب المتوفرة في سوق الشغل، أو بتقنين تجنيس من هي في حاجة ماسة اليهم.

فتقريبا كل هذه الدول، حاولت أن تحسن من ظروف المعيشة لدى سكانها منذ ثورتها الصناعية حتى الآن بفضل الصناعة والتصنيع، وبذلك مهدت السبيل للأعداد السكانية المتزايدة بها للعمل في قطاع غير القطاع الزراعي، فأوجدت لهم المخرج الاقتصادي السليم للعمل والإنتاج"[137].

لكن النقد اللاذع الذي تعرضت له النظرية المالتوسية كان من طرف المعسكر الاشتراكي، الذي اعتبر نظرية "مالتوس" نظرية بورجوازية تخدم مصلحة فئة معينة على

---

[136] . فتحي محمد أبو عيانة، مرجع سابق، ص 302.

[137] – صلاح الدين نامق، مر جع سابق، ص 138.

حساب أخرى، أي تخدم مصلحة الطبقة البورجوازية على حساب طبقة الجماهير الشعبية التي يعتبرها "مالتوس" ناتجة عن زيادة السكان بطريقة غير منظمة، كما "يدعو "مالتوس" للمحافظة على الملكية الخاصة بشكل كامل، وهو يقصد الملكية الخاصة بوسائل الإنتاج... ويؤكد أن الجمهور الذي يشارك في التمرد هو من السكان الفائضين"[138].

[138] – فالنتي ترجمة مقدام بسام "أسس نظرية السكان" دار التقدم موسكو 1980 ص: 76–77.